بريجيت جيرو

حياة متعجِّلة

ترجمة عن الفرنسية

وئام غدَّاس

جائزة غونكور الفرنسية



T2874



منشورات حياة

حياة متعجّلة

الكتاب: حياة متعجِّلة

العنوان الأصلي: VIVRE VITE

المؤلفة: بريجيت جيرو

المترجمة: وئام غدّاس

التدقيق اللغوي: شيرين يونس

التنسيق الداخلي: ضياء فريد

تصميم الغلاف: عبد الفتاح بوشوندوقه



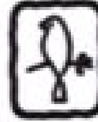
T2874

عدد الصفحات: 180

رقم الإيداع: 1446\9741

الترقيم الدولي: 978-603-05-5551-2

الطبعة الأولى: 2025



منشورات
حياة

يمكن شراء إصداراتنا من المتجر الإلكتروني:

hayat-publishing.com

حياة متعجِّلة

بريجيت جيرو

رواية

ترجمة عن الفرنسية

وئام غدَّاس

جائزة غونكور الفرنسية للرواية 2022

إلى ثِيو

الكتابة، هي أن نُقتاد إلى ذلك المكان الذي نرغب في تجنُّبه.

باتريك أوتريو

بعد أن قاومتُ شهورًا عدَّة، وبعد أن تجاهلتُ يومًا إثر يوم هجمات المستثمرين العقاريين، الذين كانوا يحثُّونني على تسليم المبنى لهم، انتهى الأمر باستسلامي.

اليوم وقَّعتُ على عقد بيع المنزل.

عندما أقول المنزل، أعني المنزل الذي اشتريناه، أنا وكلود، منذ عشرين عامًا، والذي لم يعِش فيه قَطُّ.

بسبب الحادث. بسبب ذلك اليوم من شهر يونيو، عندما قام بزيادة السرعة على دراجة نارية، ليست ملكًا له، في أحد شوارع المدينة. متأثرًا بلو ريد، الذي كتب: عِش سريعًا، مُت شابًا، وأشياء من هذا القبيل، في الكتاب الذي كان كلود يقرؤه، حيث عثرت عليه مُلقًى على الأرضية الخشبية أسفل السرير. تصفَّحته في الليلة التي تلت ذلك. العب دور الشرير، قلِّل من احترام كل شيء.

لقد بعثُ روحي، وروحه ربما.

اشترى المستثمر العقاري بالفعل عديد من قطع الأراضي، منها قطعة أرض كانت ملكًا للجار، والتي كان يخطط لإقامة عمارة عليها، ستهيمن على الحديقة، وسوف تنتهك خصوصيتي، من أعلى طوابقها الأربعة، فضلًا على أنها ستحجب الشمس. انتهى الهدوء وانتهى النور، ستتحوَّل الطبيعة من حولي إلى خرسانة، وسيختفي المشهد الطبيعي.

من الجانب الآخر، من المخطط أن يصبح المسار طريقًا أسفلتية، يتعدَّى على منزلي، لتسهيل الوصول إلى الحي الذي أصبح الآن سكنيًّا. غناء العصافير سوف يغطي عليه ضجيج المحركات، وستأتي الجرَّافات وتقتلع كل شيء ما زال حيًّا.

عندما اشترينا، كلود وأنا، في ذلك العام 1999، عندما تم تحويل الفرنكات إلى يورو، حيث كانت أبسط عملية حسابية، تُجبرنا على القيام بقاعدة الثلاثة الطفولية، أشار مخطط استغلال الأرض، أننا أمام أرض خضراء، بمعنى، أن المنطقة لم تكن قابلة للبناء. أبلغنا صاحب البيت المجاور، أنه من الممنوع قطع شجرة، إلا لو ستستبدل بها أخرى. كل ذرة من الطبيعة كانت مقدسة، ولهذا السبب سحرنا هذا المكان، حيث يمكننا العيش مختبئين، على حافة المدينة. كانت هنالك شجرة كرز أمام النوافذ، وشجرة قيقب اقتلعتها عاصفة، في العام الذي عدت فيه إلى الجزائر، وشجرة أرز الأطلس، علمتُ في الآونة الأخيرة أن صمغها كان يُستخدم في تحنيط المومياوات.

أشجار أخرى زرعتها بنفسي، وأخرى نَمَت بمفردها، مثل شجرة التين التي نمت على الجدار الخلفي، كل واحدة منها تحكي قصة. غير أن كلود لم يرَ شيئًا من هذا. كان بالكاد يجد الوقت للزيارة، وهو يصفِّر بحماس، ليرى حجم الأعمال التي تنتظرنا، ويعاين المكان الذي يمكنه ركن دراجته النارية فيه. كان لديه الوقت لقياس المساحات، ليقفز في الفضاء إذا ما أراد تجسيد فكرة، راسمًا بعض الحركات في الهواء، للتوقيع لدى كاتب العدل، وليكون ساخرًا في مكتب «كريدي موتيال»، في اللحظة التي تُوزَّع فيها نسبة القرض على كل واحدٍ منًّا.

كانت الأماكن ذات إمكانيات كبيرة، كما يُقال بالمصطلحات العقارية. مسألة التجديد هذه كهربتنا. كان في إمكاننا الاستماع إلى الموسيقا بصوتٍ عالٍ، دون أن نُزعج هذا الجار، الذي يعِدُّ الأشجار، والذي تمتد أرضه الشاسعة إلى ما خلف السياج الطبيعي. كان في إمكاننا وضع حقائبنا من أجل حياة كاملة، والقيام بمخططات بلا حصرٍ على المجرة.

انتقلتُ وحدي، مع ابننا، في قلب تسلسلٍ زمني قاسٍ للغاية؛ توقيع عقد البيع، حادث، انتقال، جنازة.

السرعة الأكثر جنونًا على مدى حياتي. انطباع أشبه بركوب الأفعوانية، شعر تحمله الرياح، مع جندول[1] يوشك أن يغرق.

أكتب من هذا المكان البعيد حيث هبطت، ومن حيث أرى العالم كما لو أنه فيلمٌ ضبابي صُوِّر لفترة طويلة من دوني.

أصبح المنزل شاهدًا على حياتي من دون كلود، هيكلًا كان عليَّ أن أتعلَّم كيف أعيش فيه. وفيه هدمت الحواجز الخشبية بضربات قوية، بمطرقة ثقيلة، ضربات بمستوى غضبي.

كان منزلًا متهالكًا نوعًا ما، بمساحة ترابية، يتوجَّب إعادة إحيائها، حيث أملنا أن نحوِّلها إلى حديقة. وبدلًا من الترميم، كان لديَّ شعور بأنني أهدِم، وأدمِّر، وأعلن الحرب على كل ما يقف بوجهي؛ الجبس، الحجر، الخشب، وكل المواد التي كان في إمكاني تعذيبها، دون أن يزِجَّ بي أحد في السجن. كان هذا انتقامي الصغير من القدَر، ركل الصفائح المعدنية لبابٍ دوَّار، قطع خيش قذر بالمقص، تكسير زجاج النوافذ مع الصراخ.

كل هذا، بينما أحاول الحفاظ على شرنقة في قلب هذه الفوضى، حتى يتمكَّن ابننا من النوم بأمانٍ. جحر صغير بألوانٍ زاهية، به ألحفة ووسائد من الريش، ورسومات معلَّقة رغم كل شيء أعلى السرير، وسجادة سميكة، درع ضد الخوف وأشباح الليل.

---

(1) قارب طويل ورقيق يستعمل في قنوات البندقية بإيطاليا (المترجمة)

على مرِّ السنوات، قمتُ أخيرًا بترويض هذا المنزل، الذي كنَنتُ له الضغينة، وعاملته بحذرٍ. بعد أن سكنت المكان كالسائر في أثناء نومه، بعد أن اختلط عليَّ النهار والليل، توقَّفتُ عن الاصطدام بالجدران، وبدأتُ في إعادة طلائها. توقَّفت عن تدمير الحواجز الخشبية وأسقف الجبس، وعن اعتبار كل متر مربع، بمنزلة قوة عدوَّة. هدَّأتُ من غضبي، وقبِلت الدخول في رداء شخص تسهل معاشرته. كان عليَّ العودة إلى عالم الأحياء. مَن كان يقول إني أرملة كنت أقذف النيران في وجهه. مصدومة بسبب الحزن نعم، أرملة لا.

لكن لا يزال يتعيَّن عليَّ التخلُّص من الأعشاب الضارة التي كانت تحتل الحديقة. كنت أقتلع، طيلة شهورٍ، كل ما يقع تحت يدي، بحركاتٍ متكررة ومثيرة للقلق، تعلَّمتُ اسم عشبة شعير الرمال الزاحف، أو نبات القراص الحارق، أو نبات الرِّجلة، التي أشعلتها في حفر النار السرية بعد حلول الظلام (لم يكن مسموحًا لنا بإشعال النار بسبب الجسيمات المعلقة الدقيقة).

قمتُ بالقضاء على النباتات الاجتياحية الدخيلة مثل عشبة الرجيد واللبلاب التي كانت تزحف في الظل، ومن خلال تعقُّب النباتات غير المرغوب فيها، قمتُ بتطهير قطعة الأرض في الوقت نفسه الذي كنت أطارد فيه الظلال التي تحت رأسي.

شيئًا فشيئًا، بدأتُ أعيش في المكان بطريقة بورجوازية، مثلما ينصُّ أحد بنود عقد التأمين الذي أبرمته، لحمايتنا في حالة نشوب حريق، أو أضرار بسبب المياه، أو حالة سطو (حدوث مصيبة واحدة لا تمنع أخرى، حسب قانون مورفي الشهير الذي لم أفلت منه).

أصبحتُ أقل غضبًا، وتمكّنت من رسم مخططات الطابقَين، مثلما تخيَّلناهما أنا وكلود. كنتُ أعرف بالضبط ما كان سيحبُّه، المواد التي فكّر فيها، وراجعتُ الصفحات التي عاينّاها في كتالوج لابير.

انتهى بي الأمر باستعادة أفكاري، ثم بالتقاء الحرفيين الذين كانوا يأتون لصبِّ بلاطة أو تغيير عارضة أو إصلاح أرضية تالفة. الذين يأتون لتجديد الحمام، أو تركيب التدفئة المركزية. مَن يدري، قد أرغب في يوم من الأيام في الاستحمام مجددًا. حدث أنني شعرتُ بالمتعة فيَّ اكتشاف لون، من خلال محاولة تنسيق الطلاء مع خشب أحد الأبواب. حدث أنني شعرت بجمال الطريقة التي كان يدخل بها الضوء إلى المطبخ قبل العشاء مباشرة.

لكنني لم أكن أفهم إلى من كان يتوجّه هذا الضوء. لقد كنتُ أفضِّل الأيام الماطرة، التي لم تتظاهر على الأقل بأنها تصرف انتباهي عن حزني. لقد قررت أن المنزل سيكون هو الشيء الذي سيربطني بكلود. والذي من شأنه أن يمنح إطارًا لهذه الحياة الجديدة التي لم نخترها أنا وابننا. كان الأمر لا يزال يتعلق بابننا، بينما كان عليَّ أن أتعلم أن أقول ابني. مثلما عليَّ في نهاية الأمر أن أقول أنا بدلًا

من هذه الـ نحن، التي لبستني. هذه الـ أنا التي سوف تسلخني، التي ستتحدث عن هذه العزلة التي لم أرِدها، وهذا الحياد عن الحقيقة.

تمسّكت بفكرة إنشاء استوديو التسجيل الصغير، الذي أراده كلود منذ فترة طويلة؛ غرفة عازلة للصوت، كان يأمل أن يعزل نفسه فيها للعمل. كانت ستحتوي على الآلات التي يمتلكها، غيتار البيس (الجهير)، الغيتار الكهربائي، وجهاز مزج الموسيقا الذي امتلكه للتوِ (دائرة متسلسلة مكوَّنة من ستة مسارات، آسفة على تعريفه، ولكن لهذا أهميته)، والتي عزف عليها مستخدمًا سماعات الرأس.

كنت أمضي قُدُمًا بصبرٍ، واستغرق الأمر ما يقارب العشرين عامًا للانتهاء من جميع الغرف، وجميع المساحات؛ إذ لم أغيِّر النوافذ إلا في العام الماضي. للتوِ قمت بإعادة طلاء الدُّرف. لو كنت أعرف أنَّ بعد كل هذه المتاعب سينتهي الأمر بأن يدمِّر مستثمرٌ كل شيء!

لم أقم قطُّ بترميم وإعادة طلاء الواجهة، بقيَت على حالتها القذرة بعض الشيء؛ سيكون هذا مكلفًا جدًّا. لم أقم مطلقًا بتركيب الأرضية الخشبية، كما خططنا؛ لقد كنت على حقٍّ تمامًا.

ما كان يهمُّني كان شيئًا آخر. لم أكن مهووسة إلا بشيء واحد، أبقيته سرًّا حتى لا أخيف مَن حولي. لم أتكلم عن ذلك، أو بالأحرى لم أعد أتكلم عنه، لأنه بعد عامين أو ثلاثة، كان سيبدو من المريب أن أصرَّ على الرغبة في فَهم كيفية وقوعِ الحادث. حادث لم يُفسَّر سببه قطُّ، ما يعني أن عقلي لم يتوقف قطُّ عن الركض.

لقد استغرق الأمر مني كل هذا الوقت، لأعرف ما إذا كان لهذه الكلمة، قدَر، التي أسمعها هنا وهناك، أيُّ معنى. في الوقت الذي كنت مجبَرة فيه على مغادرة المكان، ليُنشأ طريق مكان المنزل، يجب عليَّ الإشارة إلى نقطة أخيرة، والتي ستسمح لي بإغلاق التحقيق. من المفارقة أن يمرَّ طريق فوق ملكيَّتي، بعد أن مات كلود في الطريق. طريق في وقت يمتلئ فيه الكوكب بكل هذه الطرق، التي تسرِّع من مهمة ثاني أكسيد الكربون. كان كلود سيضحك من سخرية القدر هذه. كتاب ناقد الروك الأمريكي ليستر بانغس الذي كان يقرؤه، الموضوع أسفل السرير، مع هذه الجملة من لُو ريد - والتي نُسِبَت في البداَية إلى جيمس دين- وقد لاحظتها، تحمل عنوان: ردود فعل مجنونة وأنواع أخرى من الكاربراتير المحطَّم[1]. الكاربراتير مرة أخرى.. لا مفر منه.

أراجع الأمر برمته مرة أخيرة، في أثناء النظرة الأخيرة للمالك قبل إغلاق الباب بشكلٍ نهائي. لأن المنزل موجود في قلب مسبِّبات الحادث.

(1) الكاربراتير: جهاز لمزج الهواء مع الوقود قبل ضخ المزيج لمحرك الاحتراق الداخلي، يقوم مبدأ عمله على ترديد جزيئات الهواء وذلك من خلال منافث، وعندها يُخلَط مع الهواء من المحيط الخارجي. (المترجمة)

لو لم أرغب في بيع الشقَّة.

لو لم أصر على زيارة هذا المنزل.

لو لم ينتحر جدي في الوقت الذي كنا بحاجة فيه إلى المال.

لو لم نحصل على مفاتيح المنزل مسبقًا.

لو لم تتصل أمي بأخي لتُخبره أن لدينا مرأبًا.

لو لم يركن أخي دراجته النارية هناك خلال أسبوع إجازته.

لو وافقت على أن يذهب ابننا في إجازة مع أخي.

لو لم أغيِّر موعد رحلتي إلى ناشري في باريس.

لو أنني اتصلت بكلود مساء يوم 21 يونيو كما كان ينبغي أن أفعل عوضًا عن الاستماع إلى هيلين وهي تروي لي قصة حبها الجديدة.

لو كان لديَّ هاتف محمول.

لو لم يكن وقت الأمهات هو وقت الآباء نفسه.

لو مات ستيفن كينغ في الحادث المروِّع الذي تعرض له قبل كلود بثلاثة أيام

لو هطلت الأمطار.

لو استمع كلود إلى أغنية «لا داعي إلى الذعر» لفرقة كولد بلاي، وليس «نشيد الموت في فيغاس» قبل مغادرة المكتب.

لو لم ينسَ كلود ال 300 فرنك التي سحبها في ماكينة الصرف الآلي.

لو لم يقرر دينيس. ر، إعادة السيارة 2CV إلى والده.

لو لم تكن الأيام التي سبقت الحادث، مغلَّفة بسلسلة من الأحداث، كل منها غير متوقع أكثر من سابقه، وكل منها غير قابل للتفسير.

وقبل كل شيء، لماذا يقتحم تاداو بابا، هذا المهندس الياباني المتحمس، الذي أحدث ثورة في تاريخ شركة هوندا، حياتي، رغم أنه يعيش على بُعد عشرة آلاف كيلومتر مني.

لماذا سُمِح بتصدير هوندا CBR Fireblade 900 (شفرة النار)، الرائدة في الصناعة اليابانية، والتي كان يستقلها كلود في 22 يونيو 1999، إلى أوروبا وحُظِرَت في اليابان، لأنها كانت تُعَد خطيرة للغاية؟

أعود إلى سلسلة «لو» التي استبدَّت بي طيلة هذه السنوات. وجعلت وجودي واقعًا مشروطًا بماضٍ مفترض.

عندما لا تقع كارثة، نتقدَّم دون النظر إلى الوراء، نضع خطَّ الأفق نصب أعيننا، إلى الأمام مباشرة. وعندما تقع، نعود على أعقابنا لنطارد الأمكنة، ونشرع في إعادة البناء. نرغب في فهم كل حركة وكل قرار. نسترجع مئة مرة. نصبح متخصصين في السبب والنتيجة. نتعقب، نشرِح. نريد أن نعرف كل شيء عن الطبيعة

البشرية، والقوى الفردية والجماعية التي تجعل ما يحدث يحدث. اختصاصي اجتماعي، شرطي، أو كاتب، لم نعد نعرف، إننا نهذي، نريد أن نفهم كيف نصبح رقمًا في الإحصائيات، فاصلة داخل الكلِّ الكبير. بينما كنا نعتقد أننا فريدون وخالدون.

لو...

منذ لقائنا الأول في إحدى ضواحي ليون، التي تُسمَّى «ريليو لا باب»، وهي ليست مشهورة كثيرًا لأنه حُرِق عدد أقل بكثيرٍ من السيارات هناك مقارنة بـ«فولكس أون فيلين» منذ الثمانينيات، بذلنا أنا وكلود كلَّ ما في وسعنا لتركها، والانتقال إلى وسط ليون.

أحببتُ هذه الفترة، عندما تفرَّغت للبحث في الإعلانات الصغيرة، عن الشقق التي تتوافق مع أحلامنا. حلمنا بالمناطق المزدحمة، المملوءة بالمقاهي وقاعات السينما والمحلات، التي افتقدناها في مناطق التنمية الحضرية ZUP*. أردنا شيئًا مناقضًا للأحياء الأشبه بالمهاجع، حيث نشأنا، تلك المباني عالية الارتفاع، التي استُنسِخت إلى عشرات النسخ، والمصنوعة من الخرسانة المسلَّحة المستقيمة بشكلٍ مثالي.

وجدتُ إيجارًا دون صعوبة كبيرة (كانت بداية الثمانينيات)، وانتقلنا إلى مساحة واسعة وقديمة، حيث جذبنا الإيجار المنخفض بشكلٍ مثيرٍ للسخرية (400 فرنك شهريًا، ما زلت محتفظة بإيصالات الإيجار)، بالإضافة إلى عمودَين من الجبس شديد الجودة، ما منح للصالون مظهرًا زائفًا لقصر، وأرضية خشبية مصنوعة من خشب البلوط، عزَّزت الوهم. كان الوقت قد حان لوضع حدٍّ للأرضية المصنوعة من مشمَّع، التي تعوَّدناها والتدفئة تحت الأرضية التي جعلت أرجل أمهاتنا تنتفخ.

كنَّا مندهشين من قبول ملفِّنا، إلى درجة لم ننتبه معها، إلى عدم وجود أجهزة للتدفئة، وأن النوافذ لم تكن عازلة تمامًا، وأن واجهة المبنى المقابل ليست بعيدة عنا إلا بمسافة أقل من خمسة أمتار، وهو ما يحجب الضوء، فضلًا على أنه كان فندقًا للعابرين.

كنَّا أوَّل من هاجر من مجموعتنا في مناطق التنمية الحضرية (ZUP)[1] ، إلى وسط المدينة، وحصل على الكأس المقدسة، وهي شقة فسيحة بما يكفي لاستقبال الأصدقاء، وتشكيل قاعدة قريبة من محطة مترو «فندق المدينة». لقد كان بعبارة أخرى، مكانًا مثاليًّا للسهرات، والحفلات الموسيقية المرتجَلة، أو لإيواء من يحتاجون إلى المبيت.

غير أنَّ الحظ انقلب بسرعة.

طُرِدنا بسرعة بسبب التحسينات، مصطلح لم نعرفه عندما كنا في العشرين، لكنه حدَّد مسارنا. عرض علينا المستثمر العقاري، الذي اشترى المبنى لتحسين المساحات السكنية، أن يؤجر لنا من جديد، كما ينص القانون، لكن في «فينيسيو»، وهي ضاحية أخرى معروفة بلياليها الصاخبة، وأبراجها ذات الخمسة عشر طابقًا، والتي

(1) مناطق التنمية الحضرية (ZUP): هو إجراء إداري للتخطيط العمراني للمدن استُخدِم في فرنسا بين عامَي 1959 و1967، من أجل الاستجابة للطلب المتزايد للسكن. كان الهدف من هذه المناطق هو السماح بإنشاء أحياء جديدة من العدم، مع مساكنها، ولكن أيضًا محلاتها التجارية ومرافقها. وقد اتخذت شكل مجمعات سكنية كبيرة، وساعدت في معالجة مشكلات السكن، ولكن يُعتقد عمومًا أنها لم تسمح بإنشاء أحياء ديناميكية. (المترجمة)

ستقود سياسة المدينة قريبًا إلى تفجيرها بالديناميت. لم ننوِ العودة إلى الضواحي، حيث بدا أنهم يريدون إعادتنا بالقوة، وكان علينا القتال من أجل البقاء في وسط المدينة.

بعد طردنا بوقتٍ قليلٍ، من شقة تطلُّ على الأرصفة، على يد مالك عديم الضمير، جاءنا خبر انتحار جدي، دون ربط للأحداث، كما يمكن لجملتي هذه أن توحي به.

النقطة المشتركة، إذا نظرنا بعينٍ مكبّرة إلى الماضي، هي أن جدي لأمي، وهو مثال نموذجي للنزوح الريفي، الذي أوصله إلى مدينة ليون الحضرية في فترة الخمسينيات، انتقل مع عائلته إلى منزلٍ صغيرٍ واقع على ضفاف نهر الرون، في بلدة سان فون، عندما كانت مجموعة الأدوية رون بولينك، في أوج سعيها (التي اشترتها شركة سانوفي أفنتيس)، لتوسيع نشاطها. بعد سنوات قليلة، اضطرَّ جدي وجدتي إلى ترك المكان للجرّافات، ليجدا نفسيهما أسفل أبراج فينيسيو، حيث كان مصير أولئك الذين قُطعوا مع أصولهم، كالأوفرنيين[1]، والجزائريين والمغاربة أو البرتغاليين، والذين لن يجرؤوا على الشكوى من تنفُّس الهواء المشبَّع بكبريت الهيدروجين، المنبعث من مصفاة فيزين القريبة جدًّا. بعد وفاة جدتي، التي لم تَعُد

(1) الأوفرنيون: هم السكان والشعب المنحدر من أوفيرني، وهي منطقة تاريخية وثقافية تقع في الوسط الفرنسي ومنتشرة فوق جبال ماسيف سنترال، ويشكِل الأوفرنيون واحدة من أقدم وأقوى الوحدات الإقليمية في فرنسا، التي تتميز بثقافتها الخاصة. (المترجمة)

تعرف أين تنشر الملابس، بسبب رائحة البيض الفاسد، التي كانت تتغلغل في الغسيل، والتي أصيبت بسرطان الدم في وقت باكر، وبعد مغامرات أخرى سيكون من الصعب سردها، ألقى جدي بنفسه في مياه نهر الرون. عُثِر على جثته وأوراق هويته، في سد بيير بينيت، وسط وادي البتروكيمياويات.

هل بسبب هذه الحتمية والمال الذي تلقيته من والدتي وقت الميراث أصبحنا أنا وكلود مالكَين؟ هل كان ذلك حتى لا أتعرَّض لخطر الطرد مرة أخرى؟ أردنا ربما تهدئة الأمور، وبلا شَكٍّ تهدئة شيء آخر، نوع من القلق الذي لم نع به حتى، والذي، بالنسبة إلى كلود، يمكن اختصاره في المنفى، لأنه عندما كان في الرابعة من عمره، وُضع على متن قارب قادم من الجزائر، البلد الذي لن يراه مرة أخرى.

أن تصبح مالكًا لمنزل، ليس، على الأرجح، مجرَّد رمز أيديولوجي كما يُعتقَد.

اشترينا شقة في حي كروا-روس، من عائلة بويكر، التي كانت تغادر المكان، لأنهم ينتظرون مولودًا جديدًا. بقينا هناك عشرة سنوات، واستغرقنا المدة نفسها تقريبًا لتجديدها. كان هذا نصيب جيلنا، الأشخاص الذين في الثلاثينيات يشترون ثم يحوِّلون «الكانوت» -وهي المساحات التي كانت تضم في القرن التاسع عشر

ورش الحرير، والتي سَمح ارتفاع سقفها الكبير بتركيب أنوال النسيج، وتخزين الحرير- إلى منازل.

تغيَّر الحي، منذ عصر «الكانوت»، محافظًا رغم كل شيء على نصيبه من العمال والمهاجرين. أراد الكثيرون منًّا، إعادة تصميم المكان، التجريد، إعادة الطلاء، تركيب وتجهيز مطابخ أمريكية، اقتلاع دعامات الأسقف المزيفة التي مدَّها أصحابها في منتصف القرن العشرين لإخفاء العوارض ذات الطراز الفرنسي، التي كانت غير عصرية على الإطلاق في عصر الثلاثين سنة المجيدة(1).

تغيَّرت الموضة، وأصبح شعار المرحلة هو الأصالة؛ إذ كان الهدف النهائي لسنوات التسعينيات، على العكس، هو جعل تلك العوارض والأحجار مرئية.

---

(1) الثلاثون سنة المجيدة: تشير إلى الفترة بين 1945 و1975، التي شهدت فيها أغلب الدول المتقدمة نموًّا اقتصاديًّا كبيرًا، وأغلبها أعضاء في منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية. ابتكر تلك العبارة عالِم الاقتصاد الفرنسي جان فوراستييه في 1979، وذلك على منوال الثلاثة المجيدة في إشارة إلى الأيام الثورية 27 و28 و29 يوليو 1830، التي أسقطت الملك شارل العاشر ملك فرنسا. الثلاثون المجيدة تمثِّل ثورة، صامتة بالتأكيد، ولكنها جلبت تغييرات اقتصادية واجتماعية ضخمة، حيث سجلت انتقال أوروبا، 40 سنة بعد الولايات المتحدة، إلى مجتمع استهلاكي. حالة فرنسا يمكن أن تشير خاصة إلى العنوان الفرعي لكتاب جان فوراستييه «الثورة الخفيَّة»، ولكن النمو الاقتصادي كان كذلك في إيطاليا وألمانيا وكندا واليابان، وذلك عبر الاستثمار والاستهلاك. (المترجمة)

هذا ما حاولنا فعله، كلود وأنا، حتى لو كان ذلك يعني أن نقضي عطلات نهاية الأسبوع هناك، في نشوة خفيفة، مفتونَين بزيلا-ديكور، الذي استخدمناه لمعالجة الأسطح الخشبية.

جلسنا على السقالات الصغيرة المستأجَرة من كيلوتو، واستمعنا إلى موسيقا نيرفانا ونحن في ملابس عملنا. شعرنا بفرحة أن يكون لنا منزلٌ لأول مرة. آمنّا بالجمال، وكنّا مقتنعَين بأننا سنحوِّل هذا المكان إلى معبدٍ للذوق الرفيع، كنا عاشقَين، ولم يكن أمامنا أي عقبات.

وُلد ابننا حاملًا طاقتنا في وهجها. كان ينام في غرفة النوم الوحيدة، حيث قمنا بإعادة تصميم ورق الحائط، أما نحن ففي السرير ذي الطابقين، شيء أشبه بكانوت القرن التاسع عشر. كان أمرًا شائعًا بين الناس في الحي، الذين وجدوا أنه من الرومانسية أن يتسلقوا السلم، صعودًا ونزولًا، حتى ليتبوَّلوا في الثالثة صباحًا. لقد تخيلنا أننا نحتكر فن العيش، لقد كنا شخصين رائعين وواثقين.

يمكنني أن أؤكد هنا أنها كانت الحياة المثالية. دام هذا عشر سنوات.

لا أعرف ما الذي دفعني إلى أن أرغب في تغيير شيء في هذا الاستقرار. لأن هذه الرغبة في الانتقال جاءت مني، هذه الرغبة في التحرك، للبدء من جديد. للصعود درجة في سُلَّم الأناقة والرقي، والسعي إلى الكمال ذاته.

تذرَّعتُ بهذا السُّلم، الذي كان علينا أن نعلَق به في منتصف الليل، وانعدام الخصوصية، والغرفة التي سنفقدها إذا رُزقنا بالطفل الثاني الذي كنا نفكر فيه.

في هذا المجال من الزمن، بدأتُ الكتابة، في ذلك الوقت من الاختباء والشك، حيث اعتقدت أن بُعدًا من الوجود مفقود.

ليس هنالك ترتيب، لا زمني ولا منهجي، لتسلسل الأحداث. موجات فقط، تظهر من الأفق، يمكن رؤيتها بوضوحٍ على خطوط التلال، غالبًا ما تكون غير ضارة لأنه يمكن التنبؤ بها، أمواج أو دوامات، أيًا كانت، ومن ثَم هنالك تلك الأمواج الأرضية[1] (العاتية)، التي لم ننتبه لقدومها، والتي تتضخَّم وتأتي لتبتلعك عندما تدير ظهرك.

لعلَّ وفاة جدي، لم يكن لها علاقة بكل هذا. ظاهريًا لم تولِّد شيئًا، عدا مبلغًا من المال. لا شيء مميَّز سوى تلك الأموال، التي علينا استخدامها بشكلٍ جيدٍ، وعلينا استثمارها دون المخاطرة بفقدانها.

ما الذي يمكن أن يكون أفضل من الحجر لوضع وديعة مالية فيه، بما أن الطبقة الاجتماعية التي أنتمي إليها لا تفهم شيئًا في «ميكانيك» الاستثمار، وتخشى منه كالطاعون. تُعتبر كلمة «وديعة»، كلمة كبيرة، لأنه في حالتي الأمر متعلق بكمية متواضعة من المال، لكنها مهمة نوعًا ما، ذلك لأنه حُوِّلت في دفعة واحدة إلى حسابي، بواسطة والدتي الحريصة على عدم المساس بميراثها.

---

(1) الأمواج الأرضية: الموج الأرضي هو تكسُّر موجة أو أكثر من الأمواج ذات حجم أكبر بكثيرٍ من غيرها، ومن المحتمل أن تسبِّب الغرق والدمار على الشاطئ الذي تسقط فيه. يُقال موجة عارمة في اللغة المجازية للتعبير عن قوة حدث ما، وما لا يمكن التنبؤ به. (المترجمة)

باختصارٍ، هذا المال المقدَّم من طرف والدتي، والذي قُسِم إلى جزأين متساويين، على ابنَيها، شكّل المبلغ المطلوب بالضبط، للقيام باستثمارنا الشخصي الشهير، والذي من دونه لم نكن أنا وكلود قادرَين على القيام بهذه القفزة نحو الامتلاك كما جرت العادة بتسميتها. أن نشتري حتى لا نُطرد مجددًا، جيِد، وأن نبدأ في بناء أسس حياة مشتركة، هذا أهم، ولكن، لابد من امتلاك الوسائل اللازمة لذلك.

لو لم يُنهِ جدي حياته قبل الأوان، لما تمكّنَّا من التفكير في هذه الملكية الأولى، ثم إعادة البيع، ثم الشراء مرة أخرى. ولم نكن لنضع أقدامنا قط في هذا المنزل الواسع، الذي به مرأب، والذي سيكون مصدر الحادث.

لكن جدي ليس المسؤول الوحيد عن هذه الأموال، التي كانت تتساقط علينا إذا جاز التعبير. الدافع الرئيس الآخر، والأكثر فظاعة بالتأكيد، كانت المضاربة العقارية التي بدأت تدير الرؤوس وتلفت الأنظار في نهاية الثمانينيات. تشتري بمبلغ ألف فرنك، وبعد عشرة أعوام تعيد البيع بضعف ذلك المبلغ. رهان ناجح. كنَّا محاطين ببعض المتذاكين، الذين كانوا يخبر بعضهم بعضًا عن ذلك، وحتى لو تظاهرنا بعدم «تناول هذا النوع من الخبز»، انتهى بنا الأمر بإخراج الآلة الحاسبة ومناقشة سعر المتر المربع بعد التجديد. كان الإغراء كبيرًا لتنفيذ هذه القفزة (لم يكن هنالك نقص في العبارات

للإشارة إلى الطلقات النارية التي بدأ هذا وذاك في إطلاقها دون وازعٍ هنا وهناك، بما في ذلك بين أصدقائنا اليساريين المتطرفين).
وحتّى لو لم نكن في حالة سيئة جدًّا في «كانوتنا» ذي الطابقين، فقد انتهى بنا الأمر إلى السماح لأنفسنا لتستحوذ علينا هذه الضغوط من أجل التوسُّع والمال السهل. باستثناء أنه كان علينا الانتقال، وما كان باهظ الثمن عند البيع، كان باهظ الثمن عند الشراء، ولكنه كان نوعًا من التحدي المثير، سأكون غير أمينة لو ادَّعيتُ عكس ذلك.

سمح لي كلود بأن أفعل ذلك، بكل تلك الوداعة والبساطة اللتين ميَّزتاه. إذا كانت لديَّ الطاقة لإعادة بيع الشقة، إذا كانت لديَّ الطاقة لبدء كل شيء من الصفر، لِمَ لا؟ لقد كانت تلك عبارته التي يستعملها عندما لا يكون ضد أمر ما، لِمَ لا؟

كان يستمع إلى «أوازيس» ويحدِّثني عن الخلاف بين الأخوين غالاغر؛ المغني ليام، وعازف الغيتار نويل. يقوم برفع مستوى الصوت، في المطبخ عند المساء، هناك حيث ركَّب مشغل الأقراص المضغوطة، وهناك حيث جعلني أكتشف الشرائط الصوتية لتلك الحقبة الزمنية. بلور أو أوازيس؟ كما سأل الجيل السابق: رولينغ ستونز أم البيتلز؟ كانت هذه هي الأسئلة التي كان مفتونًا بها. أكثر من الجدران ذات الأحجار المكشوفة أو القلاع في إسبانيا. رغم أنه كان يقوم بمختلف أعمال الصيانة ببراعة ودقة، وإذا كان يحب الجلوس على ركبتَيه أمام شيء، سيحب الركوع أمام صندوق المعدات الخاص به، لِم لا.

لقد حوَّلت أيامي إلى سعي. كنتُ بعيدة عن تخيُّل أنني أعرِّض حياتنا للخطر. كنت في حاجة إلى التحرك. في الوقت نفسه الذي كنت أكتب فيه روايتي الأولى (قصة رجل محبوس داخل جدران السجن لأنه قتل والده)، قمت بتقصي الإعلانات المُبوَّبة، أُجري مكالمات هاتفية، أقوم بحسابات، ونظمت زيارات إلى شقتنا المكونة من ثلاث غرف. ما أطلقته كمقترحٍ، حتى لا أقول كمزحة، أصبح ضروريًا، وسرعان ما أصبح طارئًا.

جعلني الأدرينالين أستمر. كنت أنتظر كل يوم اثنين أن توضع ال69[1] في صندوق البريد، (كان هذا قبل الإنترنت ولوبون كوان[2] مباشرة)، حددت مواعيد، وبحثت عن المكان المثالي الذي تخيلته مع حديقة. لا أعرف من أين أتت هذه النزوة المتمثلة في خدش الأرض، وزراعة النباتات المزهرة (إنها العطلات في بريتاني بالتأكيد)، وتناول الإفطار في الخارج، ودعوة الأصدقاء، والسماح لابننا باللعب في الهواء الطلق. تضمنت معاييري ما يلي: بناءً قديمًا، اتجاهًا جنوبيًا، ثلاث أو أربع غرف (كانت هناك حاجة إلى مساحة لكلود وآلاته الموسيقية، وكنت أرغب في مكتب)، حديقة صغيرة أو تراسًا، ومكانًا لركن الدراجة النارية، كنت أهدف إلى المستحيل، لعل هذا ما أعجبني.

---

(1) 69 مجلة هي عبارة عن نشرة لإعلانات البيع والشراء. (المترجمة)

(2) لوبون كوان: Le bon Coin، موقع إلكتروني لإعلانات البيع والشراء. (المترجمة)

أزور، أتمنى، وكانت حياتي تدور حول هذا المكان الذي أكتشفه. أوسع، وأكثر إشراقًا، وأكثر راحة. كنت أزور، وكنت أكتب. هل ينبغي لنا أن نرى صلة بين هاتين الضرورتين؟ لا شكَّ في استحالة البقاء هادئة، رغم أني كنت أعمل في الخارج يومين في الأسبوع.

انتهى بي الأمر بأن أصبحت خبيرة في البحث عن الشقق. كنت أقوم بفك رموز الإعلانات بشكلٍ لا مثيل له. عرفتُ كيف أكتشف العيوب من خلال الطريقة التي كُتِبَت بها، لطالما أحببتُ هذه اللغة القائمة على الفخاخ والإغفالات، التي حوَّلتني إلى مترجمة، إلى ذبابة صغيرة جدًّا لمن لا يعرف كيف يفعل ذلك.

كان ينبغي أن يخبرني صوتٌ خافتٌ بأن أظلَّ هنا، بألَّا أهجر منزلنا/ كانوتنا الذي تم تجديده، وهو ضيق بعض الشيء، بالتأكيد، متقشف قليلًا، ولكنه صالح للعيش بشكلٍ مثالي. كان حريًّا أن يربطني صوت خافت إلى كرسيي يوم السبتَ عندما ذهبت للصيد، بينما كلود يعمل.

ابقِ هنا.

كان لا يزال في إمكاني إيقاف كل شيء. لم أكن ملتزمة مع أي مكان، أو أي وكالة أو بنك. كنتُ حرة، وكان كل شيء بخير.

لكنني لستُ من النوع الذي يستسلم.

يا لها من جملة بشعة، التي قبلتُ أخيرًا أن أكتبها. حتى إنني كثّفت جهودي، ووضعتُ ملاحظات في صناديق بريد المنازل الصغيرة والمجاورة لشارعنا. قلت لنفسي إن المنزل الملاصق[1] سيكون مثاليًا. أومأ كلود برأسه: نعم لِمَ لا، إذا كان هذا سيسعدكِ. الأمنية الوحيدة التي كانت لديه، الشيء الوحيد الذي كان سيحبه، هو أن يكون في الأعلى، في إمكانه النظر إلى الأسطح، من شرفته بينما يدخِّن سيجارته. هل كان هذا هو الصدى البعيد لهذه الشرفة في الجزائر العاصمة، حيث كان يركب دراجته ذات الثلاث عجلات، عندما كان طفلًا، وحيث احتفظ بالإحساس الذي شعر به في ذلك الوقت.

هذه السماء الشاسعة التي يتردد فيها صدى التفجيرات أحيانًا. لكنني فضلتُ أن نكون في الأسفل، على أرضية الأبقار. ما زلتُ أتذكر هذا الدافع الذي بدا لي مريبًا بعد ذلك، هذه الرغبة التي تحوَّلت إلى هوس.

(1) المنزل الملاصق: أو صف المنزل، هو نوعٌ من المنازل المستطيلة عمومًا في التخطيط، لديها واجهة على الشارع، وأخرى على الحديقة الداخلية، وهي تتقاسم واحدًا أو أكثر من الجدران المحاذية مع المنازل المجاورة، وبالتالي من حيث الفضاء فهو ليس مستقلًا أو بعيدًا عن البيوت الأخرى. (المترجمة)

جذبني إعلان صغير إلى منزلٍ قريبٍ، على بُعد بضعة شوارع من شارعنا. ذهبت إلى هناك مع ابننا الذي كان يبلغ من العمر سبع سنوات بالفعل. كنت أعرف أنه كان باهظَ الثمن، باهظ الثمن كثيرًا بالنسبة إلينا، وقد ذهبتُ بدافع الفضول، مثلما يُقال، لرؤية ما كان يخفيه ذلك الجدار العالي، الذي كثيرًا ما كنَّا نمرُّ أمامه.

كانت صدمة مبهرة، لا شيء يُحتسَب في سُلَّم المعايير أكثر من انطباع الانبهار الأول، وقد كان موجودًا، فمن الطبيعي أن يكون موجودًا، ومن الضروري أن يكون موجودًا. ولكن لم يكن لدينا المال. ما زلت أتذكر، كل ذلك اللون الأخضر، الأشجار الكبيرة والأراجيح. أتذكر زهور الفاوانيا وهي تتدلَّى من جذوعها. كان داخلها مظلمٌ وساحرٌ. خشب السُّلم كان يُصدِر صريرًا، حيث كان في شكل ربع دائرة مع درابزين مصقول. ثم نجد غرف النوم الأربعة في الطابق الأول، يغطي جدرانها ورقٌ من عصر آخر، وغرفة حمام على طراز الركوكو[1].

---

(1) يمثِّل الرسم الركوكي، أو الركوكو، تعبير رسم يخص حركة جمالية ازدهرت في أوروبا بين أوائل القرن الثامن عشر وأواخره، وهاجرت إلى أمريكا واستمرت في بعض المناطق حتى منتصف القرن التاسع عشر. ينقسم الرسم في هذه الحركة إلى معسكرين مختلفين اختلافًا صارخًا، أحدهما يشكِّل توثيقًا بصريًا ودِّيًا مريحًا لطريقة الحياة والنظرة العالمية للنخبة الأوروبية في القرن الثامن عشر، والآخر، يطوِّع عناصر أصيلة من أسلوب الزخرفة النصبية للكنائس والقصور، ليلعب دور

في أثناء سيري في الحديقة الواسعة، ووصولي إلى السياج الخلفي، مع كل الندم الذي كان يخنقني، بعدما فهمت أن هذا العقار لم يُخلَق لنا، لمحت أنه كان يوجد هناك، في الزاوية التي تخفيها الحديقة، منزل آخر، أصغر حجمًا وأكثر تواضعًا، حيث كانت مصارعه ذات الطلاء المتقشِّر مغلقة، منزل مهجور اختفى وسط النباتات.

هنا، كان عليَّ أن أخرس.

منزل مهجور رأيته في الزاوية الميتة، مثل تلك الآثار التي يكتشفها المرء، مدفونة تحت اللبلاب على حافة غابة، مسكونة ربما، حيث تتنفس الرطوبة، والملح الصخري، وكل الأشياء الضارة، هذه المباني المحصَّنة بشكلٍ فجّ، التي لا تزال تحتوي على الخوف من الليالي العاصفة، وجذوع الأشجار نصف المحترقة في المدفأة، وشظايا الزجاج، والأوراق القديمة المتناثرة على الأرضية.

وهو ما كان يجعل الأشخاص يعرضون عنها.

لم أستطع تمالك نفسي، سألت.

وسيلة لتمجيد الإيمان والقوة المدنية. وُلِد الركوكو في باريس في العقد الأول من القرن الثامن عشر تقريبًا، بوصفه رد فعل من الطبقة الأرستقراطية الفرنسية ضد الباروكية المترفة والبلاطية والجادة التي مورست في عهد لويس الرابع عشر ملك فرنسا. (المترجمة)

أخبرتني السيدة أن هذا المنزل ملك لأخيها، وأنه لا يريد بيعه. أشارت لي أن للأمر علاقة بالحرب. عقد جان مولان اجتماعات هناك، نسيت أن أقول إننا كنّا في مدينة كالوير، المجاوِرة للدائرة الرابعة في ليون، كالوير-إي- كوير، المدينة التي قُبِض فيها على جان مولان. حكت لي قصة عن المظلِّيين الإنجليز، الذين أخفتهم عائلتها في القبو، وعن الأسلحة المدفونة في قاع الحديقة. قامت بحركة بيدها، لتشير بشكلٍ غامضٍ إلى الأرض أسفل شجرة صنوبرية (حيث عرفت فيما بعد أنها شجرة أرز الأطلس). تحدثت أيضًا عن الذخيرة التي خبَّأها والدها في دوحها عندما كانت رضيعة، وقوالب الصابون التي خزَّنتها أسرتها، لينتهي بها الأمر في النهاية إلى متفجرات. يقطن شقيق هذه السيدة في مدينة نيس، لا يريد البيع. لا، ليس هنالك جدوى من الإصرار.

لو كان أي شخص آخر لهرب، ولأشاح بوجهه بعيدًا عن هذا المنزل، الذي يوحي تاريخه بوجود موجات شؤم. لو كان أيًا كان، لترك هذه الجدران الأربعة مغلقة بعناية على ماضيها.

فعلتُ العكس تمامًا، كأن مغناطيسًا يسحبني إلى هذا اللغز الذي قدَّم نفسه لي، كنت مسلوبة أمام هذه المهمة المزدوجة المستحيلة. شراء المنزل، والعثور على الأسلحة المخفية. كما لو أن هذه المغامرة ستجعل مني مقاتِلة في المقاومة. كان الأمر غير متوقع، ولم أشعر بالكارثة التي ستقلب حياتنا رأسًا على عقب.

بعد أيام قليلة، لم أعد أستطيع تمالك نفسي، كتبت رسالة إلى مدام مرسييه، كان اسم السيدة، حيث عبَّرتُ فيها عن مدى إعجابي بالمكان، وعن تعلُّقي بالحي، وبلا شكٍّ أشياء شديدة الحساسية والرهافة من شأنها أن تدفعها إلى إقناع أخيها بتغيير رأيه. هذا الأخ البعيد والعنيد، كان هذا بائنًا من ملكيته المشتركة والسرية.

لقد كانت تلك بداية الإثارة التي لم أتوقف قطُّ عن الشعور بالخجل منها.

لم أتلقَّ جوابًا عن رسالتي. لقد كنتُ ساذجة، فقد اعتقدت أن غرباء سيتأثرون بمشاعر ومزاج امرأة شابة تبحث عن سكن. ظللت أنتظر، وكنت محبَطة، لكن مجروحة أيضًا من أن هؤلاء البورجوازيين من عائلة ميرسييه رفضوني.

كان عليَّ أن أرى علامة في كل هذا، كان عليَّ أن أبارك رفضهم، بدلًا من الأمل في إقناعهم، بدلًا من جعل هذه المسألة أكثر من مجرد بحثٍ عن منزل. لو كنت أصولية، لتحدثت عن نوعٍ من الصراع الطبقي، وربما حتى عن الانتقام... لنقل إنني أصولية مستنيرة.

واصلتُ بحثي، فقد كانت الحياة أمامي في نهاية الأمر، هذا ما اعتقدته. كان كل شيء يسير على ما يرام، لكنني لم أدرك ذلك. فرصة أخرى ستطرح نفسها. استمررت في تصفُّح الإعلانات الصغيرة

وتواصلت مع وكالات عقارية. لم أكن سيئة للغاية، في إنجاز هذه المهمة، يومًا بعد يوم، أضاف هذا الكثير من الاهتزازات إلى حياتي اليومية.

لم أكن متأكدة إن كان من الأفضل أن أشتري أولًا أو أبيع. كنت قد سمعت عن القرض المرحلي، وفكرت في الليالي الطوال المقبلة، لكن لا شيء سيُثنيني، فقد كنت مقتنعة بما أفعله. جمعت معلومات عن أسعار الفائدة، والشروط المصرفية. كانت تحركني طاقة، لم أعهدها بنفسي قَطُّ، ولم أجدها بعد ذلك الوقت قَطُّ. عندما أسترجع ذلك، أشعر أنني كنت جيشًا صغيرًا بمفردي، القائد، الجندي، والمدفع.

في أحد الأيام، قمت بزيارة شقة كبيرة، وجذابة للغاية، تقع في كالوير أيضًا، ولكن في مكان أبعد، بالقرب من المسبح التابع للبلدية، على حافة حي مونتيسوي، هناك حيث كان يجب أن ننتمي ربما. بدت الحياة مختلفة هناك، كما لو أنها تسير بنسقٍ بطيء.

كان على ابننا أن يغيِّر مدرسته. ليس ثمة شيء لا يمكن التغلب عليه. كانت هذه الشقة، ذات الحديقة الجماعية المشتركة، تنضح بشيء هادئ للغاية، حيث ستسمح لنا مساحتها الكبيرة، بنشر مشاريعنا الإبداعية، ولمَ لا أن نؤجر غرفة لطالبٍ أيضًا. يكفي أن نعثر على مرأب فقط، وهو أمر سننظر فيه فيما بعد.

تحوَّلت أمسياتنا إلى وقفات تأمُّل، مزايا وعيوب، اندفاع وتردد، جمع وطرح. بسبب هذه الخيارات الصعبة، نشأت التوتُّرات. لم نعُد أنا وكلود نتحدث إلا عن هذا، تلك الرغبة في الانتقال التي كانت تطاردني، التي احتلَّت كل المساحة في حياتي، حوَّلتني إلى شخص محموم، وغريب الأطوار أحيانًا. عدتُ لرؤية الشقة مع صديقتي ماري، كنت في حاجة إلى رأي آخر، وفي ذلك اليوم، كانت هنالك أرانب على الأرض التي كانت تمتدُّ نزولًا على طول التجاويف الصخرية التي فوق نهر الرون. أصبح هذا المشهد حُجتي الصادمة لأتخذ قرارًا، والتي لم يكن في إمكان أي وكيل عقاري أن يخترعها. لقد كان ذلك هو الوقت أيضًا الذي اكتشفت فيه شركاتهم، ومصطلحاتهم التي يمكن التنبؤ بها، قمصانهم الضيقة واتجاهاتهم.

جاء كلود بدوره للزيارة، فوجد المكان جيدًا، رغم أنه كان بعيدًا عن المقاهي، وقاعات السينما، وعن الجريدة التي يعمل بها، وبما أنه بدأ يتعب من بحثي الذي لا نهاية له، قال إن المنزل جيد. كان عكسي، إذ يكفي بالنسبة إليه أن يكون لدينا مكان للنوم، للاستماع إلى الموسيقا، ومكان لركن الدراجة. لم تبتلعه عبادة الكمال. كان قلقه الوحيد هو عدم العيش قريبًا من البحر الأبيض المتوسط، ورؤية الخريف يحلُّ محل الصيف، ودرجة الحرارة التي تنخفض تزامنًا مع قِصر النهار. يُقلقه خصوصًا مرور الوقت، فالسنوات التي مرَّت جعلته في الأربعين من عمره. أما العيش هنا أو هناك، فكان مجرد تفصيل، لكن دخول شهر نوفمبر كان عذابًا، بل وأسوأ من ذلك.

كنّا في شهر نوفمبر، وكنّا على وشك التوقيع على اتفاقية البيع. كنتُ متحمسة، وكلود مثلي، فهذا التغيير من شأنه أن يُحدث حركة في حياتنا. كان حدثًا، أن نشتري شقة بمثل هذا الاتساع. يمكنني تحويل إحدى الغرف إلى مكتب، ويمكن أن نحصل على غرفة نوم للضيوف، يمكن لكلود أن يُخرج صندوق معداته، ويمكنه التدرب مع مجموعته في الساحة التي تقع في آخر الحديقة المشتركة، بترخيصٍ من أصحاب الملكية المشتركة الآخرين. سنحصل على اشتراكٍ في حمام السباحة، وهو شيء سيفيدنا كثيرًا. يكفي الواحد فقط أن ينظر إلى الحياة من الجانب المشرق.

لا يزال علينا بيع شقتنا الصغيرة، سوف أبدأ في تنظيم زيارات للمشترين، والتنظيف كل يوم، ووضع زهور التوليب في مزهرية على طاولة المطبخ، ومنع ابننا من نشر ألعابه على الأرضية في كل أرجاء البيت. سوف نمنع أنفسنا من تعليق الغسيل في منتصف الصالون، سنلمّع الحمام، وكذلك الفرن، بعد كل استخدام، وسوف نزيل الغيتارات التي في الممر.

في ذلك الوقت اتصلت بي مدام ميرسييه.

وأنا أكتب هذه السطور، أقول لنفسي إنه كان الشيطان. رغم أن ميرسييه تحتوي على كلمة ميرسي (شكرًا). كان على الجواب أن يكون لا، شكرًا.

هذا ما كان ينبغي لي قوله، عندما اتصلت بي في مساءٍ ممطر، على هاتف البيت الأرضي (يجب تذكُّر هذا العالم الذي كان بلا هواتف محمولة)، لتُعلِمنا بأن أخاها غيَّر رأيه، لقد أصبح موافقًا على بيع هذا الخراب الذي حلمت به ليل نهار، ومن أجله عرضت مبلغًا من المال مبالغًا فيه.

لقد وافق الأحمق، وانتهى به الأمر إلى أن يكون حكيمًا، بما أن غبية توسَّلت إليه أن يمنحها هذا المنزل الذي كان بالكاد قائمًا.

كان الأوان قد فات، فقد التزمنا للتوِّ بشراء منزلٍ آخر؛ لم نكن جاهزين لعرضهم. فإلغاء اتفاقية للبيع، بعد عشرة أيام، من آخر أجل قانوني للتراجع، سيكلف 10% من مبلغ الملكية، وهو ما يعني ثروة. لا مجال لطرح السؤال أصلًا. لم يكن من الوارد أن يخطر على بال شخص عاقل، وراجح. كان أي شخص سيقول إنه سوء حظ، حظ سيئ جدًّا، ولكن لا بأس، أي شخص آخر كان سيتذمَّر في الليلة الأولى ثم سينسى الأمر.

هذا ما كان عليَّ فِعله، هذا ما اقترح كلود أن نفعله.

لكنني للأسف، لم أستطع الاستسلام، حتى لو جاء ذلك مقابل جهد جبار ومستحيل، سوف أتغذى على فسخ العقد الجديد هذا، وعقد اتفاق مع الشيطان.

كلا، لا تذهبي إلى هناك، كان على الصوت أن يصرخ هكذا.

انسي الأمر، قال كلود. يجب أن يتوقف هذا الآن.

ليالٍ بلا نوم، حماس، تفكير، اضطرابات.

كنت أرغب في الحصول على منزل ميرسييه، كنت أرغب في البقاء في الحي، بعدما فكرت في كل شيء جيدًا، بالقرب من المقاهي، بالقرب من المدرسة، بالقرب من السوق. كيف أمكنني الاندفاع في امتلاك منزل عند سفح حي مونتيسوي، دون أن يكون ثمة شيء حوله غير المسبح التابع للبلدية ـ والذي أصبحت رسوم الدخول إليه باهظة، وهذا بلا شك حتى لا يزعج فقراء الحي، سكان المدينة الجدد ـ دون المرور فوق الأرصفة، ودون أي سبب للتنزه، وبالتالي للمشي على الأقدام.

كيف استطعت أن ألقي بنفسي في مكان مهجور، بحجة أنني رأيت ذات صباح عند شروق الشمس، أرنبَين يلعبان في العشب، وأن كلود سيصبح في إمكانه وضع أدواته الموسيقية في كوخ خشبي، دون جهاز تدفئة، وفي حديقة مشتركة، دون معرفة إن كان باقي المالكين موافقين على ذلك حتى. ما الذي دهاني؟

كان علينا شراء منزل ميرسييه، الذي كان يحتوي على قطعة أرض صغيرة. شعرتُ بذلك، أردتُ ذلك، لقد كانت فرصة حياتنا.

كان كلود نائمًا، ولم أجرؤ على إخباره أنني سأجد حلًا. كان ينام بسلام، وكان عقلي يحترق، كنت أبحث عن طريقة لإلغاء اتفاقية البيع تلك. كان يكفيني أن أذهب في النوم، والتخلي عن العناد. كان

لا يزال هناك وقت لإيقاف كل شيء، أنا فقط في حاجة إلى عدم القيام بشيء، عدم القيام بأي شيء ببساطة.

لا تحرِّكي أصغر إصبع في يدك.

القاعدة الأبسط في حياتي.

ابقي هادئة في غرفتك، كما همس لي في أذني ذلك الفيلسوف، الذي أصبح موضة مجددًا.

في اليوم التالي كنت في قمة حماسي، راجعت القوانين، أصبحت متخصصة في اتفاقيات البيع، التزامات الطرفين، وشروط انتهاكها. أخذت معلومات من كاتب العدل (الذي كان صديقًا)، ومن الوكالة العقارية، ومن البنك الذي استقبلني بالفعل قبل أسبوعين. أجريت حسابات جديدة على أحد الدفاتر. وبمجرد استنفاد كل الاحتمالات، أو بالأحرى كل الطرق المسدودة، قررت أننا سنشتري الشقة في مونتيسوي كما هو مخطط لها، ثم سنبيعها على الفور. الأمر في غاية السهولة، وليس معجزة أو سحرًا. كان هناك طلبٌ قوي، كنتُ محاطة بمعارف كانوا يبحثون عن هذا النوع من الشقق التي تقع في أماكن هادئة، كان ذلك المذهب الجديد لجيلنا، الأزواج الشبَّان الذين لديهم أطفال، والذين يحلمون بحديقة تملؤها النباتات، تكون مشتركة، بأراجيح وتمرح فيها الأرانب، كان الطلب أكثر من العرض، وسوف أبيعها بلمح البصر. سأكتب إعلانًا حيث سأحدد: العائلة المثالية مقابل العشيرة، الحياة في الهواء الطلق، أشياء نادرة، إمكانية الشواء، فرحة العيش وزراعة النباتات.

كان عليَّ فقط أن أتحدث مع كلود حول هذا الموضوع، وآخذ رأيه. يبدو أنه حاول أن يُثنيني. أي شخص عاقل كان سيفعل الشيء نفسه. أصررت وقرَّرت: سوف أهتم بكل شيء، وغاليت: لن تضطرَّ إلى فعل أي شيء، وأضفتُ: لا تقلق، سينجح الأمر.

أردتُ أن أقول ضمنيًّا، أنا ذكية جدًّا. ضمنيًّا، أردت أن أقول لن أفوِّت فرصة جديدة لإثارة إعجابك.

حددتُ سلسلة من المواعيد، وقد كنت أشرف على زيارات المشترين بنفسي لشقة مونتيسوي، دون الاستعانة بوكالة عقارية. خشيت السؤال: لماذا تبيعين؟ اخترعت كذبة رخيصة جدًّا، إلى حد أنني لا أجرؤ على كتابتها.

هذه التسويات التي نقوم بها مع أنفسنا، ليست جميلة كما تعلمون. لم أعترف بذلك حتى في عيادة طبيب نفسي. لماذا تبيعين؟

كنت أقابل المشترين وأجعلهم يزورون الشقة، ثم أذهب لاصطحاب ابني من المدرسة. بدوت طبيعية. كنت بخيرٍ في الواقع، وقد تعاملتُ مع كل هذا على أنه لعبة. ركوب الأفعوانية كان قد بدأ بالفعل. حدَّثت نفسي أنني أحب هذا، أحب عرض الشقق، ويمكنني أن أجعل منها مهنتي، من يدري؟

كنتُ قد بدأتُ بكتابة رواية جديدة، ولكنَّ ذهني كان منشغلًا إلى الحد الذي لم أستطع معه الاستمرار. كان اسمها «لعب الغميضة»، وكانت قصة معاصرة لعُقلة الإصبع. تركتها ضمن مخططاتي. لكي

تكتب عليك أن تكون مهووسًا بما تتحدث عنه، ووقتها كنتُ مهووسة بشيء آخر، احتلَّ كل المساحات.

لحُسن الحظ، كنتُ أعمل خارج المنزل، كما ذكرت سابقًا، ما أتاح لي أن أعيش حياة متوازنة لبضع ساعات في الأسبوع. كنتُ أذهب إلى المكتب في سيارتي، أسلك الطريق الدائري، أشارك في اجتماعات، كان عليَّ اتخاذ قرارات، القيام بمحادثات، إجراء مكالمات هاتفية، قراءة كتب، كان الأمر حقيقيًّا وواضحًا. قلت لنفسي: لا بأس لستِ مجنونة.

من ناحية أخرى، كذبتُ، وأعدتُ بيع الشقة التي اشتريتها قبل ثلاثة أسابيع لزوجَين شابَّين ورثا للتوِّ (ربما كانا يكذبان أيضًا)، وكانا يخططان للإنجاب. كنت فخورة بإعلان ذلك لكلود.

شعرت أني قوية جدًّا. أخيرًا تخلَّصت من الثِّقل الزائد. الارتياح العظيم. شعرت بالخفَّة أخيرًا، خفيفة جدًّا! ما زلت أتذكر جيدًا تلك الرغبة في الرقص التي لم تتركني قَطُّ. الفرح، الفرح، لم أشعر إلا بالفرح.

يمكنني أن أتصل الآن بالسيدة مرسييه، التي جعلناها تنتظر بعد أن كنَّا نتوسل إليها.

لا تتصلي.

ظننت أن كل شيء قد استعاد نظامه، بعد هذا التسارع الخارج عن السيطرة. كان كل شيء متصلًا بشكلٍ مثالي.

كان بيع «كانوتنا»، أمرًا سهلًا نسبيًّا، كان الحي مزدهرًا، حتى لو كانت الشمس، في نهاية فصل الشتاء، لا تأتي إلا بين الساعة الواحدة والثالثة ظهرًا، مسلطة الضوء بشكلٍ خفي على الجدران الحجرية والأرضيات الخشبية التي قمنا بصقلها عن اقتناع قبل عشر سنوات.

زوجان شابان (آخران)، ينحدران من سانت إتيان، حيث كان الرجل يشتغل رجل إطفاء، وجدا أن الشقة توافق ذوقهما، وخطّطا لهدم كل شيء لإعادة البناء وفقًا لأفكارهما. وربما إعادة إحياء تقاليد الأسقف الزائفة. لم يعجبهما احتمال انبعاج العوارض؛ لكلِّ شخص هواجسه.

لا يزال علينا أن نوقّع على اتفاقية بيع منزل ميرسييه، والحصول على قرض من البنك، وسوف نقف بعد ذلك على أقدامنا. إنه اليوم الشهير الذي تلاعب فيه كلود بنسبة تأمين القرض، التي ستُقسَّم على كلينا. في حال حدوث وفاة بالتأكيد.

كنّا جالسين في مكتب كريدي موتويل، واضعين خوذات الدراجة النارية على ركبنا. 50/50؟ 40/60؟ كان الأمر كما لو كنّا نحاول معرفة مَن يستحق أكثر. من الجدير بالثقة أكثر، الأكثر قدرة على الوفاء، والذي يُعَد مستقبله واعدًا أكثر من الآخر. أنا كنت موظفة بدوامٍ جزئي في إحدى الجمعيات، وكنت قد بدأت للتوِّ في الكتابة.

أما كلود فكان يدير الديسكو المحلي في ليون، كما يتعاون بشكلٍ منتظمٍ مع صحيفة لوموند (فريق تحرير رون ألب غالبًا)، حيث ينشر مقالات عن الموسيقا. لعبنا لعبة مصارعة الذراعين، في مكتب كريدي موتويل ضاحكين، لتخفيف الجدية التي أجبرتنا على أخذ الوقت الكافي للتوقيع بالأحرف الأولى على كل صفحة من العقد، دون قراءة أي منها. قمنا بهذه الحركة، تحت سمع وبصر المستشار، من منطلق تمرُّد ما بعد المراهقة، وهو سلوك غير ناضج أظهر أننا لسنا أهلًا لشراء منزل، هذه الرغبة التي كنا نزدريها في أعماقنا. ورغم أنه أمر لا يشبهنا، فإننا كنًّا نتوجه مباشرة نحو هذه المرحلة الجديدة من وجودنا.

بإرادتي، قمتُ بتجهيز ظروف الحادث، دون أن أدرك.

كان من المفترض أن تعطينا عائلة ميرسييه مفاتيح المنزل يوم الاثنين 21 يونيو، وهو يوم توقيع عقد البيع. لكننا، ولأننا كنَّا مستعجلين جدًّا، توسَّلنا إليهم أن نأخذها بشكلٍ مسبقٍ، قبل أيام قليلة، أي بدءًا من الجمعة 18 يونيو، حتى نتمكَّن من الاستفادةَ من عطلة نهاية الأسبوع لتجهيز ركن في المرأب، وتخزين بعض الصناديق والبدء في عملية الانتقال.

كان كاتب العدل صديقًا، كما قلت سابقًا. أو بالأحرى صديق غاي الذي كان يعمل مع كلود في مكتبة البلدية. أمام إصرارنا، وافق على هذا الخرق الصغير، ليكون لطيفًا معنا، وحتى لا يتصرَّف كرجل قانون متعنِّت أمام التفاصيل. كان يظن أنه يفعل الصواب، وأنه لا وجود لأي مجازفة، وكان هذا يُمارس بانتظام.

كل ما كان علينا فعله الآن هو الحصول على تأمين على المنزل، وهو ما فعلناه باستعجالٍ. بدأنا بنقل أولى الصناديق، الملابس الشتوية، الكتب، الأقراص المضغوطة، وبعض الألعاب. كنا نظن أننا نوفِّر الوقت من خلال هذا. وبما أن الشقة التي كنَّا نغادرها كانت على بُعد بضع مئات الأمتار فقط من المنزل، فقد كان في إمكاننا التحرك، والذهاب والمجيء متى أردنا، من خلال تحميل سيارتنا البيجو 106.

كان الأمر مضحكًا ورجعيًا، وأعني ملء السيارة حتى آخرها، بالحقائب والصناديق الكرتونية، كما هو الحال عندما كنّا طلابًا، كان من الممتع فرز الأغراض، وتكوين أكوام منها، ثم البدء في التحرك نحو ترتيبها. كان علينا التحرك، بعد كل هذه الأشهر من المماطلة. كان من المستحيل علينا أن نبقى ساكنين، فقد كنا راغبين بشدة في احتلال المكان. كنا مفعمين بالحيوية، وكل حركة أو فعل قمنا به بصبرٍ نافدٍ، يُمكن وصفه بالنشوة.

كانت هذه الإثارة، هي الإثارة نفسها لليوم الذي غادرتُ فيه منزل العائلة، لأستقر مع كلود وسط مدينة ليون. إنها مشاعر فريدة من نوعها، تترك أثرًا على الجسد بأكمله بكل ما يحمل من طاقة. سيسمح لنا هذا المنزل بتنفيذ أفكارنا وخيالنا، دون أي حدود أخرى سوى حدود ميزانيتنا.

كنت أرى نفسي وأنا أحرث الأرض، للقيام بالزرع، وأتخيل حديقة صغيرة مملوءة بالنباتات، ستسمح لابننا برعاية النباتات آكلة الحشرات، التي كانت شغفه الجديد. رأيت نفسي بالفعل، أقوم ببناء مشتلٍ صغير لزراعة الشتلات، وكنت أفكر في شرفة أرضية، ومجموعة كاملة من الملحقات الأخرى. لنقل إنها لم تكن مشكلة تفكير، بل كان الأمر على العكس تمامًا، كان من المستحيل عدم الاستبطان. إنه لأمر مدهش كيف يشغل العقل كل المساحة، يخطط، ولا يتوقف أبدًا عن استكشاف كل متر مربع مملوك حديثًا.

أتذكر عطلة نهاية الأسبوع تلك، عندما حصلنا على المفاتيح كما لو أنها هدية، أتذكر ضوء شهر يونيو، الذي كان يتراقص على الجدران الحجرية، والبوابة الخشبية الكبيرة ذات إطار الباب القديم، الذي كان من الضروري معالجته عبر مقبض، والمفتاح الثقيل، الذي كان يدور بصعوبة في القفل الصدئ. أتذكر انعكاس أشعة الشمس على الفناء الداخلي عالي الحرارة، أتذكر تلك الرغبة التي تملَّكتني، لملء هذا الفناء بالنباتات المتسلقة، وجعله فناءً مرصوفًا، وملاذًا لإلهام البحر الأبيض المتوسط. أحببتُ فكرة دخول المنزل من خلال هذه الحديقة، التي سيتعيَّن علينا إنشاؤها.

فكرت في بناء ملجأ للدراجات في إحدى الزوايا، بما أنني في هذا العالم الأفضل، رأيت نفسي أقود دراجة للذهاب للتسوق، مثل فتاة مدينة مثالية وأكثر من رائعة، التي خططتُ لأن أصبحها. في ذلك الوقت، لم نكن نقول «بوبو»[1] بعد.

صباح يوم الأحد، ذهبنا إلى سوق الأغراض المستعملة، ووجدنا طاولة حديقة حديدية، بأربعة كراسي، قديمة ولكنها في حالة جيدة. ليس عليَّ سوى أن أكشطها ومن ثمَّ أعيد طلاءها. كان صالون الحديقة الساحر والريفي هذا، هو الإسقاط الدقيق لحياتنا المستقبلية كما تخيلتها، ولا شك في أنها عبارة مبتذلة، التقطتُها من الأفلام أو مجلات الديكور، التي كنت أتصفحها بحماس، والتي احتفظت بها

(1) كلمة تُطلق على شخص من خلفية ثرية ومثقفة، دائم الارتباط بقيم الأصالة والإبداع. (المترجمة)

على أحد الرفوف، ولا تزال حتى الآن في متناول يدي، هنا ورائي، في الغرفة الصغيرة من المنزل، حيث أكتب، والتي بدورها سوف تُهدم قريبًا.

قمنا بدعوة ماري ومارك لتناول مشروب في الحديقة، على الكراسي الحديدية غير المريحة إلى حدٍّ ما. شربنا البيرة التي جلبناها من أجل المناسبة، التي كانت أشبه بنزهة في الطبيعة. اتخذنا مكانًا تحت شجرة الكرز المحمَّلة بالثمار، بما أنه كان في موسمه. كان هناك الكثير من الحبّات التي وقعت على الأرض، وانفجرت على الحصى، وكانت تلتصق بأسفل الأحذية. تسلق الأولاد الشجرة، فصرخت بهم ليكونوا حذرين؛ إذ لا مجال لإفساد هذا الأحد الجميل.

هذا هو فقط.
لم يكن علينا قَطُّ طلب هذه المفاتيح مسبقًا.
هذا الاستباق الطفيف صنع كل الفارق.
فهمت هذا متأخرًا.

لا تأخذي المفاتيح.

الطريقة التي تسير بها العائلات غريبة حقًّا. تجد قصص بعضهم أحيانًا، أصبحت معروضة لأعين بعضهم الآخر، وبالتالي إلى الآذان... دون علمهم. كانت أمي تعرف أن أخي، الذي يعيش في المدينة نفسها التي أسكن فيها، لم يعُد لديه مرأب لدراجته النارية. لمدة أسبوع. بسبب أن مالكته، حسب ما فهمت، استعادت المكان لتعيد طلاءه. ابتداءً من يوم الجمعة 18 يونيو، هذا اليوم الشهير الذي حصلنا فيه على المفاتيح. وخصوصًا أنه اليوم الذي كان يفترض أن يذهب فيه أخي في إجازة. أتساءل لماذا أخبرت والدتي أن المفاتيح أصبحت لدينا، أن المفاتيح عندنا بالفعل، أننا حصلنا على المفاتيح أخيرًا، هل كان الأمر ضروريًّا إلى هذا الحد؟

أتساءل لماذا أخبرتُ والدتي أن هذا المنزل به مرأب، مرأب أردنا تحويله إلى غرفة معيشة، وفناء سوف نجد فيه مساحة لإقامة مرأب.

ما الذي يدفع الابنة إلى إعطاء معلومة ما لأمها، في وقتها الحقيقي؟ خاصة وأننا نادرًا ما نتصل ببعضنا، أعني مرة كل أسبوعين ربما، ومع عدم اختراع الهاتف المحمول (كان موجودًا بالفعل، أعرف، ولكننا لم نكن نمتلك واحدًا بعد، والوحيدة في محيطي التي كانت تمتلك واحدًا، كانت كلاريس، وكانت تُخرِج الهاتف المحمول الكبير من حقيبتها بنظرة واثقة، ثم تبدأ في البحث عن

مكان يمكنه فيه التقاط الإشارة، عندما تزورنا)، وهو ما كان يمنعنا من إرسال هذه الرسائل القصيرة، التي نستخدمها اليوم لإعطاء أبسط مواقفنا وحالاتنا النفسية.

كان يمكن أن أتصل بوالدتي، فلا تجيب، ما يحيلني إلى جهاز الرد الآلي، الذي لم أكن لأترك رسالة عليه. وهو ما كان سيلغي كل ما أعقب ذلك. الاتصال بأمي، أعني الاتصال بوالدي، وهو خطأ لغوي يقول الكثير. لكن بما أن والدي كان يعاني من صعوبة في السمع، ولا شك أيضًا لأسباب أخرى، فقد اعتاد عدم الرد على الهاتف. كان والدَي نادرًا ما يغيبان عن البيت، خصوصًا في المساء، إذ لا يخرجان. لذلك لم يكن ثمة أي إمكانية أن أجد نفسي على جهاز الرد الآلي... بنسبة صفر. هذا أمر مطمئن ومخيف في الوقت نفسه. في حين، وعلى عكس ذلك، فإن والدتي لطالما وجدت صعوبة في الوصول إليَّ، ما كان يجعلها تسأل: أين «تتراكضين» هنا وهناك؟ هذا الفعل الذي يُستخدَم في عائلتها الأوفيرنية، والذي كان يمتلئ بالكثير من المعاني المبطّنة، كما يشير في مقام أول إلى عدم مقدرتي على الاستقرار في مكان واحد.

لا بد أنه لم يكن هناك شيء أكثر إثارة للاهتمام، لتخبره الابنة لوالدتها، من خبرٍ جميلٍ، كقصة المفاتيح هذه التي حُصِل عليها مسبقًا. «أمي، المفاتيح عندي!» صارحت الفتاة والدتها وكلها حماس، كما لو أنها تقول: «انظري يا ماما لقد قمت بالتبوُّل في قصريتي بنجاح.»

أمي، المفاتيح أصبحت عندي، لقد استطعت أنا أيضًا شراء منزل. لقد فعلت كل شيء بشكلٍ صحيح، كما تعلمت، انظري كوني أستمع إلى سيكس بيستلس[1]، لا يعني أنني لن أفعل كل شيء مثلما يفعله والداي.

في أي عمر يمكننا تجاهل نظرة أمهاتنا إلينا؟

هل كان ذلك للتأكيد على الامتياز الذي يمنحنا إياه كاتب العدل، عندما يعاملنا معاملة الأصدقاء؟ هل كان ذلك بهدف علوّ قيمتي أمام والدتي، مع الإشارة بشكلٍ عابرٍ إلى أن كاتب العدل هذا كان صديقًا لي؟ ودون أن أعرب عن ذلك تمامًا في ذلك الوقت، فقد كان باكرًا جدًّا، فإن الأمر كان متعلقًا أيضًا ببدئي بما نسميه نقل الطبقة الاجتماعية، دون أن أستطيع تجنُّب العصاب المصاحب له، ودون أن أنقذ الآخرين من الشكوك. كان كاتب العدل صديقًا لصديق، كما أسلفت في الفصل السابق، ولم نعرفه إلا من فترة قصيرة. ومن المعتاد، في المحادثات، يتحول أصدقاء الأصدقاء،

---

(1) سيكس بيستلس: هي فرقة بانك روك إنجليزية سابقة، تشكَّلت في لندن عام 1975م. جميع أعضائها من الذكور، وكان من أعضاء الفرقة جون ليدون. رغم أن الفرقة لم تستمر سوى سنتين ونصف، ولم تُنتج سوى 4 أغانٍ وألبوم واحد، لكن تُعتبر أعمالهم من أكثر الأعمال تأثيرًا في تاريخ الموسيقا الشعبية. (المترجمة)

وحتى المعارف البعيدة، إلى أصدقاء، من باب تسهيل الأمور. هكذا، لن نمضي حياتنا في التدقيق في التفاصيل.

باختصار، ما الذي قد يدفع أمًّا إلى تخزين المعلومات ومن ثَمَّ نقلها إلى ابنها فورًا؟ بريجيت لديها مفاتيح منزل به مرأب. يعاني دافيد من مشكلة المرأب. أقوم بتوزيع المعلومة، أنظم، أنشئ رابطًا بين ابني وابنتي، أجعل نفسي مفيدة، يا له من أمر رائع. شكرًا أمي، لو كنت مكانك لفعلت الشيء نفسه، هذا أمر طبيعي، هذا التكاتف الأسري الذي يجعل بعضهم يعتمد على الآخر، هذا هو تعريف العائلة. أن تكوني أمًّا يعني جعل الحياة عادلة، والحرص ألا يكون لدى بريجيت ميزات أكثر من دافيد. جعل بريجيت، الأخت الكبرى، تعير أغراضها لدافيد. تعيرين قطع الليجو الخاصة بك، وتشاركين شبكتك، وتقرضين مرأبك. الجميع سعيد وممتنٌّ. هذا تضامن وليس تطفُّلًا. لا وجود لحدود أو ممتلكات. إنه وهب الذات لصالح المجموعة، وأحيانًا العشيرة.

وقد مُرِّرت الرسالة إذن.

لم أعد أعرف أين كان يعمل أخي في عام 1999. ربما كان بالفعل فنيًا في صيانة أسطول المركبات في مقاطعة الرون. بغض النظر عن ذلك، كانت لديه وظيفة سمحت له بأخذ إجازة لمدة أسبوع في شهر يونيو، هكذا بشكلٍ مفاجئ، قبل الإجازة الرسمية في شهر أغسطس. لا أعرف هل كان قانون تقليص ساعات العمل لمن يعملون أكثر من 35 ساعة في الأسبوع، كان موجودًا وقتها أم لا. يجب التأكد، ولكن فيمَ سيفيد ذلك؟ إلا لو أن رئيسه لأسبابٍ تتعلق بالخدمة، هو الذي طلب منه أن يصفِّي إجازاته أو ساعاتِ عمله الإضافية التي تتراكم، وأن الإدارة ليس لديها النية لأن تدفع له.

أعاره أحد أصدقائه شقة صغيرة في نِيس، كان هناك خلل في جدول الإيجار الخاص به، لم أكن أعرفه قَطُّ. لا يمكن رفض استوديو شاغر في منطقة الريفيرا (كوتٍ دازور)، خاصة عندما تكون قد أمضيت أحد عشر شهرًا في تنفس غازات التكتل الحضري لمدينة ليون، وإدارة مخزون من الأضواء الساطعة. أضواء خليج الملائكة، مختلفة عن أضواء الجسور بالتأكيد، حيث ترابط سيارات الرينو ماستر التابعة للشرطة الفرنسية. قام أخي بتنظيم كل شيء، في علاقة بعمله حسب التسلسل الهرمي، زملائه، زوجته، وحضانة ابنته، لم تكن لديه سوى مشكلة المرأب، التي سوف أحلُّها أنا، رغمًا عني. كان من المفترض أن يسافر يوم السبت 19 يونيو صباحًا، وكنا قد أخذنا المفاتيح للتوِ. لقد رتبت الصدفة الأمور بشكلٍ جيدٍ. ضع دراجة الهوندا فاير بليد هنا، ضعها في هذه الزاوية، ولن يسرقها منك أحد.

لو أنني وافقت أن يذهب ابننا إلى هذه العطلة مع أخي

لكن أخي منحني، دون قصدٍ، فرصة لكي أتفادى ما حصل. جوكر كان عليَّ ألَّا أضيِّعه.

بما أنه كان كريمًا وداعمًا، فقد عرض أن يأخذ ابننا معهم لقضاء هذا الأسبوع غير المتوقع تحت أشعة الشمس. أتذكر المحادثة التي دارت بيننا على الهاتف. كان يكفي أن أقول نعم حتى لا يقع الحادث. كان يكفي أن أقفز فرحًا بفكرة أن ابننا سيكون حرًّا من أسبوعه الأخير في الصفوف التحضيرية، وأنه سيتغيَّب عن حفلة المدرسة والاحتفالات التي تصاحب هذه الأيام الأخيرة. بدلًا من ذلك قلت إنني سأفكر في الأمر، وإنني سأتشاور حوله مع كلود، وإننا سنعاود الاتصال به بأسرع ما يمكن.

لا تفكري، قولي نعم.

كان يفترض أن يهمس لي الصوت الصغير أنه من المهم أن يقضي ابننا أسبوعًا مع ابنة خاله وخاله، إنه أمر أكثر أهمية من المدرسة، وأنها كانت فرصة مثالية لتقوية الروابط الأسرية الشهيرة. كان يجب أن أكون طبيعية وألَّا يتغلب عليَّ الخوف. لم أجرِ استطلاعًا حولي، لكنني أطرح السؤال: من سيسمح لابنه البالغ من العمر ثماني سنوات، والذي بالكاد يجيد السباحة، بالذهاب إلى البحر لمدة أسبوع كامل،

مع شخصَين بالغَين لا يعرفان كيف يعتنيان بالأطفال، مع شخصين بالغين نادرًا ما أتقابل معهما، وحيث سمعت (من والدتي)، أنهما سيستأجران زورقًا آليًا من هناك، وأن هناك طريقًا للعبور بين الشقة الصغيرة والشاطئ.

شعرت أنا وكلود بالسخف بسبب مماطلتنا. كنَّا نشعر بالحرج لرفض العرض. من نعتقد أنفسنا حتى نرفض نعمة كهذه. هل كنا ننتمي إلى الأشخاص قاتلي البهجة، متشككين، وغير قادرين على منح الثقة. سجلنا ولدنا في معسكرٍ صيفي لمدة أسبوعين خلال شهر أغسطس، وهي أول مرة نفعلها، ذلك لأن صيفنا سيكون مخصَّصًا بشكلٍ أساسي للعمل على تجهيز المنزل، وقد بدا لنا أن هذين الأسبوعين اللذين سيقضيهما بعيدًا عنا كافيان جدًّا.

عاودت الاتصال بأخي، وحرَّفت الحقيقة. أخبرته أن ابن أخته سيُجري تقييمات لنهاية السنة، وسيكون من السيئ ألَّا يقوم بها، وهو أمر لم يكن صحيحًا. قلت له إنه سيلعب دورًا مهمًّا في الرقصات المخطط لها للحفلة المدرسية، وهذا لحُسن الحظ، بالنسبة إلى ضميري، كان أمرًا حقيقيًّا. شعرت بخيبة أمله، وشكوكه حول حُسن نيَّتي. «حسنًا، هذا أمر مؤسف حقًّا. سوف تصاب صوفي بخيبة أمل». كانت صوفي تعبد ابن عمتها، الذي علَّمها تسلُّق البوابة في منزل جديهما، وكيفية قضاء الليل مختبئة في كوخ الحديقة، وكيف تضع الأكل في أفواه الخيول، دون أن تعض أصابعها.

هذا مؤسف فعلًا. لكني تحررت، ولم أعرِّض ابننا للخطر. لقد عرفنا كيف نقول لا من دون الإساءة لأي شخص.

وهو ما كان قرارًا خاطئًا آخر.

لم أفهم قَطُّ قصة المرأب الذي كان أخي يستأجره في الحي الذي يسكن فيه. أو بالأحرى إيجار من الباطن. عرضت عليه إحدى الصديقات من نادي كمال الأجسام، أن يتقاسم مكانًا في مرأب جماعي، حيث يمكن إيجاد مكان لدراجة نارية، ولو متخفية بشكلٍ أو بآخر، حتى لو كانت بمحرك كبير. كانت صفقة جيدة، خصوصًا أنَّ المكان كان قريبًا من المنزل، لطالما كان لأخي مثل هذه الصفقات الجيدة لشراء غسالات الأطباق، أو أجهزة إنذار ضد السرقة أو أجهزة ممتصات الصدمات للعربات.

كان كل شيء يسير بسلاسة، إذا جاز التعبير، باستثناء هذه المسألة الطارئة الطفيفة، التي أجبرته على ضرورة ركن دراجته النارية في مكان آخر من الجمعة 18 يونيو حتى الجمعة 25 يونيو. هذه المسألة الطارئة التي أصبحت مشكلة في ذهنه، ثم صداعًا بغيضًا. من خلال طلب رأي أصدقائه، زملائه، أولياء أمور الطلاب في المدرسة، ثم الشخص المسؤول عن أسطول سيارات الشرطة، أي رئيسه بعبارة أخرى، لم يكن ثمة خيارٌ يمكن أن يحلَّ مشكلة الهوندا، التي باتت تواجه خطر النوم في العراء، تحت النجوم. وهو أكبر رعب يمكن أن يواجهه راكب الدراجة النارية الأصيل المتشدد الذي كانه أخي (ولا يزال كذلك)، إذا قارنّاه براكب الدراجة النارية الأكثر مرونة

الذي كانه كلود، الذي رغم ذلك، لم يكن ليترك السوزوكي سافاج LS 650 الخاصة به، لتُركن في الخارج ليلًا.

لقد تمت رؤية أخي بالفعل، وهو يحاول أن يعطي رشوة للشرطي المسؤول عن المرأب الكبير التابع لوزارة الداخلية. من المؤكد أن الدراجة النارية التي ستُركن في الزاوية، لن تؤدي إلى أي خللٍ في توازن الخدمة. لكن الأمر هو نفسه دائمًا، إذا قمنا باستثناء، فستكون الفوضى، وإذا حصلت الفوضى، فهذه ليست الشرطة.

كان ربما على وشك الاتصال بصديقٍ من نادي سباق السيارات، أو بالتحدث مع أخ زوجته، لعلَّه خطَّط لدسِّ ورقة نقدية بقيمة 200 فرنك، في جيب حارس المبنى الذي يسكن فيه، حتى يسمح له بالوصول إلى الأقبية، ربما كان عليه ببساطة أن يذهب لرؤية صديق صديقه هذا، الذي وعده بجلب صندوق من النبيذ، ربما وجد هذا الحل المؤقت الذي سيسمح له بالذهاب في إجازة رغم كل شيء، عندما اتصلت به والدتي، حاملة تلك المعلومة الثمينة. بريجيت لديها المفاتيح، أخذتها مسبقًا. حصلت عليها منذ الجمعة 18 يونيو، بعد الظهر، قام كاتب العدل باستثناء بسيط، هل فهمت ما أعنيه؟ حسنًا لكن سيبقى هذا الأمر بيننا. أليست هذه صدفة لا تصدق. تمنحك الحياة مثل هذه الهدايا في بعض الأحيان.

لو أني لم أغيّر موعد تنقّلي لناشري في باريس

كان من المفترض أن تصدر روايتي الثانية في سبتمبر، في نهاية أغسطس على وجه الدقة. اسمها «نيكو». اقترحت عليَّ المسؤولة الصحفية أن آتي وأقوم بدوري الصحفي، أي التوقيع على نسخٍ للصحفيين الذين كان من المفترَض أن يقرؤوا في فصل الصيف. اقترحت عليَّ في البداية يوم الجمعة 18 يونيو، ولكن بما أنه كان يوم استلام المفاتيح، فلم أرغب في حرمان نفسي من كل ما قلتُه أعلاه. إضافة إلى ذلك كان لدينا موعدٌ مع تقني التدفئة، ولم أرغب في تفويته. سألت حول إمكانية تأجيل العمل الصحفي إلى الأسبوع القادم، يوم الثلاثاء 22 يونيو مثلًا. كنتُ منزعجة، لا يجوز فعل هذا، أعني تغيير جدول مسؤوليتي الصحفية بهذا الشكل، لكنها كانت لطيفة، ومتسامحة جدًا، رغم أنه كان في إمكانها أن ترفض. إيمانويل العزيزة. كان عليها أن تقول: أنا من يُقرِّر.

إما الثامن عشر من يونيو أو لا شيء يا عزيزتي، هذا ليس عمل حر أو تطوعي.

خاصة أنني كنت قد حصلت بالفعل على تذكرة القطار الخاصة بي، التي كانت لسوء الحظ قابلة للاستبدال، طالما تحمَّلت عناء الوقوف في طابور مكتب شركة النقل البري SNCF، في كروا–روس.

إنني ألعن هذه التذاكر القابلة للاستبدال. كان عليهم إجباري. ألعن هذا العالم الذي انحنى لرغبتي، ألعن هذه الحرية التي استخدمتُها بشكل سيئ للغاية.

لو ذهبت إلى باريس يوم 18 يونيو كما كان مخططًا، كنت سأعود إلى البيت في نهاية اليوم، في الوقت الذي كان أخي سيركن دراجته النارية فيه. كانت طرقنا ستلتقي بسرعة. ثم هذا كل شيء. هكذا لم يكن ليحدث شيء.

بالتالي، كان سيكون كافيا جدًّا بالنسبة إليَّ، لأنتظر مجددًا عشرين دقيقة في مكتب شركة النقل، وفي يدي تذكرة مرقَّمة، لكن بما أنني كنت في مزاجٍ رائع، لم يكن الأمر مزعجًا، أن أجلس أمام موظف، لاحظت أن حركاتهَ بطيئة جدًّا، وبدا لي أن انفصالها الكبير عن بعضها مثل لغزٍ.

كان ذلك قبل محطات الخدمة الذاتية، وكان قبل أن تكتسح الرقمنة والأجهزة الإلكترونية كل شيء، التي حوَّلتنا إلى صرافين، وكاتبين، وسكرتيرات، ومحاسبين. أعتقد أني كنت مبتهجة بفكرة الذهاب والإياب إلى باريس وقضاء الليل في منزل هيلين. مبتهجة بفكرة أن روايتي ستكون بين يديَّ قريبًا. لا ظلال على اللوحة.

الباريسيون لا يعرفون ذلك، لكن بالنسبة إلى سكان المدن الداخلية، فإن الحصول على تذكرة قطار بسيطة، والعثور على سريرٍ في باريس يُعَد إنجازًا صغيرًا. لكي تقضي الليل عند الأصدقاء، لا تزال في حاجة إلى أن يكون لديك أصدقاء في العاصمة، بالقرب من

الباستيل أكثر من سارتروفيل، وبأطفالٍ أقل. وبما أنني لم أنشر سوى كتابٍ واحدٍ فقط، لم أكن أعرف أي شخص تقريبًا في الوسط، على الأقل ليس بما يكفي لأتمنى الحصول على عرضٍ للإقامة.

الأمر الذي أزعجني فيما بعد إلى حدٍّ كبير، هو النوم على أريكة الصالون، وهو ما يجعلني مضطرة إلى أن يكون وجهي الصباحي مكشوفًا، الذي يختلف تمامًا عن وجهي في المساء، فرض وجودي في الحمام، والاطلاع على حميمية هؤلاء الأصدقاء، أصدقائي الباريسيين، غير الموجودين في حياتي، للأسف، خارج هذه الأيام، والذين لن يلتقي بهم قَطُّ أصدقائي الذين من ليون. (حسنًا، لو استثنينا يوم الجنازة.)

عرض عليَّ ناشري أن يحجز لي غرفة في فندق، الأمر يعود لي، بما أنني يجب أن أصل إلى ستوك STOCK (دار النشر)، في حدود الساعة العاشرة صباحًا، ولأنني سأكون قادمة من ليون، فإن ذلك سيتطلَّب مني أن أستيقظ في الفجر. وبما أنني فرضت هذا التغيير في التاريخ، لم أستطع أن أطلب تكريس فترة ما بعد الظهر بدلًا من ذلك. لأكون لطيفة، رفضتُ حجز غرفة الفندق، حيث كنت أعلم أنها ستكون مكلفة، ولا سيما أنهم دفعوا لي تذكرة القطار بالفعل. لم أحب قَطُّ هذا التمييز، الذي يجعل الكُتَّاب الإقليميين يقدمون تقارير النفقات، إنه أساسًا أمرٌ معقدٌ بما يكفي، لنرجعه إلى التمييز الإقليمي، دعنا نقل إن الأمور تغيرت الآن، ولكن في ذلك الوقت، الكاتب يجب أن يكون ساكنًا في باريس، حيث يزور

ناشره وهو في طريقه إلى السوق، بكل عفوية وأريحية. كنت أنا دائمًا، الكاتبة التي لديها قطار، مقيد بجداول زمنية محددة. عندما لا يعرف الناس ماذا يقولون لي، كانوا يسألونني إن كان لديَّ رحلة بالقطار، نعم، لقد أصبح موضوعًا للمحادثات. لو طرأ شرب مشروب ما، لم أكن أستطيع التواجد هنا قَطُّ، لأن القطار الأخير، في محطة ليون، يغادر في الساعة 7:58 مساءً. كم مرة وصلت راكضة تحت لوحة الإعلانات!

لم تكن لديَّ خبرة، وأخذت هذه المهمة الصحفية على محمل الجد، أنا فتاة جادة. فضَّلت السفر في اليوم السابق، الأمر الذي سيجنِّبني الاضطرار إلى الاستيقاظ في الساعة الخامسة صباحًا، وقضاء ليلة بلا نوم، بلا شك، وهو ما سيسمح لي أيضًا برؤية هيلين، وهي صديقة من ليون بدأت العمل في الآونة الأخيرة في متجرٍ لبيع الكتب، في الدائرة رقم عشرين، والتي أصرت على أن أزورها... لقد كان توقيتًا جيدًا بالفعل.

الذهاب إلى باريس يعني أيضًا، اغتنام الفرصة لزيارة أحد المعارض. القاطن في المناطق الداخلية يرى المعارض هدفًا في حد ذاته، بما أنه يعتقد أنه محروم من الأساسيات، في المحافظة التي يعيش فيها، وهي أن يعرف كليمت، أو باكون، أو بولتانسكي، ويتخيل أن الباريسيين يمضون حياتهم، أمام صور ووكر إيفانز، أو منشآت مؤسسة كارتييه. وبالتالي، تتناغم باريس مع المعارض، أو الحفلات الموسيقية الأسطورية، وهو ما يعدُّ أحد مكونات عقدة

المجتمع الإقليمي، الذي يمكن أن نعرِّفه على النحو الآتي: من لم يشاهد المعارض، من يكتفي بالقول إنه سمع عنها، ومن يتصفَّح ملحقات الصحف.

فعلى سبيل المثال، يسمع ساكن المقاطعة عن الحفلة الموسيقية التي أقامتها فرقة جوي ديفيزيون في بان دوش، عام 1979، وهي مجموعة سيفتقدها إلى الأبد، لكنه قرأ عنها التقرير الرائع الذي أعدَّه ميشكا أساياس في ليبيراسيون. وهو ما أثار جنون كلود من الغيرة، وأذكى رغبته في الكتابة عن موسيقا الروك. كانت المعارض والحفلات الموسيقية والقاعات الأسطورية مثل باتاكلان أو ماروكينوري، أو إليزيه مونمارتر، أو جيبوس، أو ترابيندو، أو الأولمبيا، ناهيك عن البالاس، كل هذا كان في باريس، هناك حيث يظهر التاريخ جليًّا، ويتضح أن ما حدث قد حدث بالفعل.

قلت لنفسي إذن إنني أستطيع النوم في منزل هيلين مساء يوم 21 يونيو، والقيام بالمهام الصحفية في الغد، وإذا تبقى عندي وقت، سأذهب لمشاهدة معرض النحت لعثمان سو، في جسر الفنون. قدَّرتُ إذن أن عودتي ستكون يوم الثلاثاء 22 يونيو على متن قطار الساعة السادسة و58 دقيقة مساء، لأنه لا يكون مكتظًّا عادة، وهو ما سيجعلني أصل إلى ليون نحو الساعة التاسعة مساءً.

تخطيط رائع.

كان هذا ما ظننته.

لو أنني اتصلت بكلود مساء يوم 21 يونيو كما كان يُفترض بي أن أفعل بدلًا من الاستماع لهيلين وهي تحكي لي عن قصة حبها الجديدة

ودَّعتُ كلود يوم الاثنين 21 يونيو في بداية فترة ما بعد الظهر، بعد توقيع عقد البيع عند كاتب العدل.

أخذتُ الحافلة إلى المحطة، ثم القطار كما هو مخطط، وقضيت الليلة في منزل هيلين كما هو مخطط أيضًا. خلال عطلة نهاية الأسبوع في ليون، حيث كنا نقوم ببعض الإصلاحات في المنزل، كان لا يزال لديَّ الوقت، رغم ذلك، لمقابلة صديقة في مغازة مونوبري، حيث كان ابنها في الفصل نفسه مع ابننا، والذي دعاه إلى حفلة عيد ميلاده الثامن يوم الثلاثاء 22 يونيو بعد المدرسة. يحدث هذا كثيرًا، أي أن يدعو الأطفال بعضهم بعضًا بعد الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر. ولهذا السبب أيضًا أردت البقاء في الحي، من أجل هذه الصداقة، هذه البساطة في التعامل، ومن أجل هذه الخدمات والمجاملات المتبادَلة. كل شيء كان سهلًا.

لذلك لم يكن كلود في حاجة إلى اصطحاب ابنه من المدرسة يومها.

لقد نسيت تمامًا أن أخبره.

جوكر آخر.

لكنني سوف أصلح هذا، وأضيّعه!

كنت سأقاطع المحادثة التي كانت تدور بيني وبين صديقتي هيلين، التي كانت تعيش بالقرب من مركز بومبيدو، والتي لم أرها منذ فترة طويلة. كنت سأنهض عن الأريكة التي كنت أجلس عليها بأريحية، والتي أنام عليها بمجرد حلول الليل، كنت سأسأل إن كان في إمكاني إجراء اتصال، وكنت سأنتظر حلول الساعة التاسعة والنصف، بما أنه في ذلك الوقت، كما تتذكرون، كانت المكالمات مكلفة، كانت هناك مناطق مسعَّرة، جداول زمنية، وبروتوكول يجعل الحياة غبية أحيانًا، مثل الانتظار بجانب الجهاز حتى يتصل بك شخص ما، أو أن تتصل بك إحدى الإدارات، أو أن يعاود حبيبك الاتصال بك.

انخرطنا في محادثة، لم أعد أتذكر إلى أين قادتنا، ربما كانت هيلين تتحدث عن وظيفتها الجديدة في المكتبة، أو عن المرأة التي قابلتها للتوِ، والتي تعاني بسببها من ليالٍ مضطربة، وخفقان في القلب. إلا لو ركزنا على نصوص أوليفييه كاديوت، التي تحبها، أو على ألبوم كات باور الأخير، الذي وضعته للتوِّ على القرص الدوَّار. نعم، من المحتمل أننا كنا نستمع إلى Moon Pix. ربما كنا نتحدث عن المنزل الجديد الذي اشتريناه للتوِ، أنا وكلود، وعن العمل الذي سنجريه عليه، عن هذا المنزل الذي خططنا أن يكون فيه ثلاث غرف نوم في الطابق العلوي، سوف تكون إحداها مخصصة لاستضافة الأصدقاء، والتي يمكنها أن تشغلها متى شاءت.

انهضي واتصلي.

لا يزال هناك وقت لمنع ما سيحدث.

أكلنا المعجنات المورَّقة، التي كانت ساخنة ولذيذة، وشربنا المارتيني، أعتقد أنه كان المارتيني الأحمر، في جرعات صغيرة. شربنا وثرثرنا. كان ذلك بعد الساعة التاسعة والنصف، وكان حفل الموسيقا على قدم وساقٍ تحت النوافذ. لمحت ساعة في الزاوية القريبة من المطبخ وتمكّنت من مراقبة الوقت وهو يتقدم. قلت لنفسي إن الوقت لا يزال باكرًا، وإن كلود سيكون مشغولًا في تلك الساعة بوضع ابنه في السرير، ولن أزعجه باتصالي بمجرد أن يصبح حرًّا، سوف يرغب بالتأكيد أن يكون وحده قليلًا، ليدخن سيجارة لاكي سترايك في النافذة، بينما يستمع إلى أحد

السيديهات (الأقراص المضغوطة) الجديدة، التي جُلِبت من المكتب، بصوتٍ عالٍ جدًا.

يمكنه أن يرفع مستوى الصوت حتى الساعة العاشرة مساءً، قبل أن يسمح القانون للجيران بالشكوى، وهو أمر لم يفعلوه قَطُّ، إنما على العكس هم من أتخموا آذاننا بموسيقا ساتي جيمنوبيدي، التي تُعزف على البيانو، ولكن فوق كل شيء، كانت هناك مشاجراتهما الزوجية المنتظمة، التي تنتهي دائمًا بالطريقة نفسها، يصاحبها انتحاب الابنة الذي يتسرَّب إلى آذاننا عبر السقف المصنوع من سطحٍ عازلٍ، بما أننا، كما قلت، قمنا بتفكيك العوارض.

كان هناك شيء يمنعني من الاتصال. كنت متجاهلة. كنت أنظر في اتجاه سماعة الهاتف، الموجودة على أحد الرفوف السفلية للمكتبة، لكنني لم أستطع مقاطعة هيلين التي كانت تخبرني بأشياء خاصة وحميمة عن حياتها، حياتها الباريسية الجديدة، ومشاعرها الرومانسية. لم أجرؤ على النهوض وسؤالها عما إذا كان في إمكاني استخدام هاتفها، للاتصال بكلود، كنت أخشى أن تجد هذا مبتذلًا، بل وربما تعديًا للحدود، أن امرأة بالكاد غابت لبضع ساعات، تحتاج إلى الاتصال بحبيبها. كنت أخشى بلا شك من أن تحكم عليَّ، بالطريقة نفسها التي نحكم بها أحيانًا على الأزواج المغايرين -الذين يقال اليوم إنهم متعصبون لفرض معايير الغيرية على الجميع- وأن تتصور أنني لا أستطيع أن أشعر أنني حرة، عندما أكون وحيدة من دونه، بعيدًا عن الشخص الذي تعرفه وتقدِّره بالمناسبة. ما زاد من خوفي، الذي لم يكن خوفًا تمامًا، بل مجرد إحساس غامض اخترقني، هو أن تعتقد أنني أشعر أني مجبَرة على الاتصال لأن لديَّ طفلًا، وأنها استنتجت أو بالأحرى تأكدت من أن الأمهات المنفصلات عن أولادهن، لسنَّ شيئًا.

كما هي الحال مع الأزواج المغايرين، توجد أيضًا الكليشيهات حول الأمهات اللاتي لا يعرفن كيف يعشن بعيدًا عن أطفالهن، واللواتي لا يمتلكن أي موضوعات للمحادثة غير أطفالهن، واهتمامات أخرى، ويجب القول إن هذا الكلام ليس خاطئًا بشكلٍ

كليّ. قرأت في الآونة الأخيرة نصًا للمؤلفة اللاكانية[1] دومينيك غويومارد، في كتابها جنون الأمومة المألوف، الذي يطرح سؤالًا لطيفًا حول ما إذا كان من الممكن أن تكون امرأة أمًا دون أن تكون مجنونة. هكذا، بهذه البساطة. لم يكن لدى هيلين رجل ولا طفل، ولم أرغب في تلويثها بجنوني الأمومي المحتمل، والذي سيتطلب مني، بعد ذلك، بداية للتفسير.

لكن لأكون صادقة، لم أرغب في مقاطعة ما كانت تخبرني به عن هذه الأشياء المتعلقة بالحب، التي كانت تعيشها، والتي جعلت الأمسية مثيرة. شعرنا بقمة الرضا، في خضم تراجع عدد الصديقات اللواتي يلتقين. وكنت ببساطة أيضًا، كسولة جدًا إلى درجة لم أتمكن معها من النهوض. كسل كبير جدًا.

قلت لنفسي رغم كل شيء، اتصلي.

لقد حان وقت الاتصال الآن.

هذه المكالمة الهاتفية، التي لم أستطع أن أخمّن ماهيتها، هذه المكالمة كانت ستغيّر مسار وجودنا.

---

(1) لاكانية: مدرسة نفسية نسبة إلى جاك لاكان 1901/1981. وهو محلل نفسي فرنسي ولد في باريس وتوّفي بها. اشتهر بقراءته التفسيرية لسيغموند فرويد ومساهمته في التعريف بالتحليل النفسي الفرويدي في فرنسا في الثلاثينيات من هذا القرن، وبالتغيير العميق الذي أحدثه في مفاهيم التحليل النفسي ومناهجه. (المترجمة)

هذا ما كنت سأكتبه:

هل كل شيء بخير؟ لا تذهب غدًا لاصطحاب ثيو من المدرسة، فهو مدعوٌّ إلى حفلة عيد ميلاد ماكسيم، سوف تأخذهما والدته من المدرسة، وتعيده إليك، إلى البيت في المساء. إليك الرقم. تصبح على خير يا حبيبي.

كانت الساعة عندئذٍ قد تعدَّت العاشرة، وكانت تلك هي اللحظة، كانت اللحظة المحددة، حيث سأستطيع اقتحام ليلة كلود، الذي كان سيخفض صوت الموسيقا، وهو يشرب قنينة بيرة في أثناء كتابة مقال.

لكنني لم أجرؤ مجددًا، على مقاطعة الكلمات التي كانت هيلين تتسارُّني بها، والتي لا تزال حميمية جدًّا، حيث شعرت معها بالإطراء كوني موضع ثقة.

لم أستطع، في منتصف جملة، في مكان جميل من الحكاية، حيث كانت تعرف جيدًا إثارة التشويق، بينما كانت تحاول التركيز على مشاعرها تجاه هذه المرأة التي قابلتها للتوِّ، لم أستطع النهوض، كما لو أنني أخبرها أن لديَّ أشياء أخرى لأفعلها أفضل من الاستماع لها. عذرًا، أنا مهتمة بكِ، لكن عقلي في مكان آخر، عذرًا، يجب أن أتصل بكلود، ثمة أمر يجب حلُّه.

لم أجرؤ لأن الاتصالات بين باريس وليون كانت باهظة الثمن، وأن إجراء مكالمة هاتفية، حتى بعد الساعة التاسعة والنصف، يعني طلب خدمة جديدة من صديقتي، التي كانت تستضيفني بالفعل، حتى لو كنت أعرف أن هذا العذر الزائف لن يكون كافيًا.

لنقل إنها مجموعة، حزمة من الأسباب الدقيقة، التي عند وضعها معًا، تصبح مزعجة.

بما أن الأحداث الصغيرة بدأت منذ الأسبوع الماضي، فقد انتهت إلى نسج شبكة ضيقة بما يكفي لتؤدي بشكلٍ حتمي إلى وقوع الحادث.

أنا أعرف السبب الحقيقي.

من الممكن أن يكون هذا السبب الحقيقي، وهو وحده، ما منعني من الاتصال.

كيف أحقق المصداقية أمام نفسي، أولًا وقبل كل شيء؟

ما منعني من النهوض عن الأريكة، بين الساعة التاسعة والنصف والعاشرة والنصف من ذلك المساء، كان شعورًا خاصًا، راح يتصاعد داخلي ويتراكم منذ عدة سنوات، مشروطًا بالزمن الذي نعيش فيه، يقول إنه كان على الآباء احتلال مكان جديد في منازلهم. أردت ألا يحتاج كلود إليّ، إلى نظرتي، أو رأيي، ليعتني بابنه. «أردت»، اختياري لهذا الفعل ليس دقيقًا، «تمنيت» أن يؤكد وجوده، وأن يبني علاقته بابنه، وهو ما كان يفعله. يُقال إن الأمهات متسلطات،

ومتطلبات (إلى جانب الجنون الذي ذكرته للتوِ)، إلى درجة أنني كنت أحاول أحيانًا الاختباء في إحدى الزوايا، دون أن أعرف أبدًا هل كنت أفعل الكثير أم لا. كنت أحاول الانزياح عن المكان. امتلأت الصحف الأكثر جدية بهذه المقالات التي ألقت ضوءًا جديدًا على الآباء، وحثَّتهم على أن يصبحوا ما كان يُسمَّى في ذلك الوقت بالآباء الجدد، أي بعبارة أخرى كائنات أقل ذكورية، أقلَّ بُعدًا، وأقل غيابًا. كائنات عالقة بشكلٍ أقل بين عملهم وأمسياتهم أمام التلفزيون، وفقًا للكليشيهات التي تمثِّل الرجل الفرنسي العادي في الأجيال السابقة، هؤلاء الآباء الصامتون، الذين يدخنون الغولواز داخل السيارة، ويضعون أقدامهم تحت الطاولة، ويعطون غسيلهم لزوجاتهم كي تكويه، وليس لديهم سوى اهتمام معتدل بنسلهم.

هؤلاء الآباء الجدد، الذين لم تطلب منهم التسعينيات أكثر من توفير احتياجات المنزل وحمايته، دُعُوا إلى الانخراط في أشياء أخرى كثيرة، مثل المشاركة في دروس الولادة دون ألم، تعلُّم تغيير الحفاضات أو إعطاء زجاجة الحليب للرضيع، الأمر الذي شكَّل فرقًا في توازن أكثر من زوجين، لكنه لم يمنع النساء من رفع أعينهن إلى السماء، عندما لا يزرِّر الزوج ملابس الطفل بشكلٍ صحيح. كان لا بد من اختراع هذا المكان الجديد في العائلة، وكان على النساء أن يشاركن، ما كنَّ يأملنه وما يخشينه في الوقت نفسه. كان عليهن الاستسلام لرغباتهن العدائية، أو بالأحرى لأوامرهن تلك التي أملتها عليهن أمهاتهن، وهذا المجتمع الذي يتطوَّر، وقناعاتهن الخاصة،

ناهيك من اضطراباتهن العصابية الخاصة. هذا يفرض ضرورة إرضاء عدد كبير من الأشخاص.

في ذلك المساء، في منزل هيلين، كان هذا ما منعني من التحرك بلا شك. أتذكر هذه الجملة التي صدمتني، والتي ترددت في رأسي: اتركي الأولاد وشأنهم، دعيهم ليدبِّروا أمرهم. في سلوك نسوي، ورغبة في تأكيد حريتي. في أعماقي، لم أكن أرغب في الاتصال، لم أكن أريد أن أعرف ماذا أكلوا، ماذا فعلوا في أمسيتهم، هل حفظ ابننا مقطوعته الشعرية، في أي ساعة خلد للنوم، لم أرغب في معرفة أي ملابس سيختارها كلود لصباح اليوم التالي. في الواقع، أردت أن أعرف، كنت أتحرَّق لأعرف، ولكن صوتًا صغيرًا قال لي أن أتركهم وشأنهم.

سوف تتركينهم وشأنهم. أنتِ لستِ شخصًا لا غِنى عنه.

كنت أنظر إلى الساعة وهي تدور، وأقول لنفسي إن كلود يكتب الآن مقاله عن بي جي هارفي، بمناسبة حفلها الذي ستقيمه في «تراسبوردور فيلوربان»، لافتتاح جولتها، تخيَّلته وهو يدخن، بينما النافذة مفتوحة على مصراعيها كما هو الحال في شهر يونيو، بين كتابة فقرتين، في الوقت الذي تتناهى إليه بلا شكِّ أصوات الموسيقا

الآتية من الشارع. رأيته يضع ألبوم بي جي هارفي الأخير، «هل هذه رغبة؟»، على القرص الدوَّار، ويستمع إلى ذلك الصوت وإلى أوتار الغيتار بانتباهٍ وتركيز، ويُعِد أسئلة المقابلة التي كلَّفته بها الصحيفة، هذا التمرين المحفوف بالمخاطر، الذي يتكوَّن من مزج بيانات السيرة الذاتية مع السيرة الموسيقية، مع اختيار زاوية حكيمة، من الضروري إيجاد الزاوية، إنها الطابع المميز للصحافي، الكلمة التي شغلته منذ انضمامه إلى هيئة تحرير صحيفة لوموند كصحفي مستقل قبل خمس أو ست سنوات.

قلت لنفسي إنَّ عليَّ الاتصال رغم كل شيء، لم أكن في سلام تام. تركت الأمر بسرعة. لكن ذلك كان بسبب المماطلة الشديدة، فقد كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة مساء تقريبًا، سيصبح الأمر مضحكًا نوعًا ما، إجراء مكالمة هاتفية في وقتٍ متأخر جدًّا من أجل معلومة صغيرة إلى هذا الحد. لقد خطط كلود للذهاب لاصطحاب ابنه، وهو أمر سيجعله سعيدًا بلا شك. وهذا ما انتهى بي الأمر لاكتشافه. نعم، اصطحاب ابنك من المدرسة ليس عملًا روتينيًّا، بل متعة. كان واضحًا أنها متعة. كيف لم أفكر في ذلك من قبل؟ سوف يرى ابنه قبل عيد الميلاد، من الممكن حتى أن يذهبا معًا. سيخبران بعضهما أشياء كثيرة، قد تفلت مني. سيصبحان مجانين في الطريق، وسوف يستمتعان. قررت أن هذا ليس من شأني. كانت تلك حياتهما، كان غدًا. كلود رجل بالغ. انتهى الأمر.

ما الذي يجعل أبًا لديه مسؤوليات، والذي يدير قسمًا في مؤسسة مهمة (الديسكو المحلي في ليون)، يصطحب ابنه من المدرسة مرتين في الأسبوع، ويجعل ذلك أولوية؟ ليس من عادة الرجال، حتى لو كانوا أقل من مديرين، في نهاية القرن العشرين، أن يقطعوا يوم عملهم، على الساعة الرابعة بعد الظهر، معتبرين أن تواجدهم لم يعد ضروريًا، ثم ينحرفون إلى الظل وينفقون الوقت مع طفلهم. كما أنه ليس خيار النساء اللواتي يحاولن القيام بأعمال عظيمة ومذهلة للتوفيق بين حياتهن العائلية، الزوجية، وحياتهن المهنية. ولكن لقد قيل الكثير بالفعل حول هذه القضية. الجميع يفعل ما في وسعه، ويخنقه الوقت الذي لا يملكه، والذي يسرق فُتاته من هنا وهناك، شاعرًا بالإحباط في حال فوَّت هذا الأمر أو ذاك. أن يكون الواحد مستنفرًا في عدِّ الدقائق باستمرارٍ، منذ الصباح وحتى وقت النوم، بمجرد أن يطفئ نور غرفة الأطفال، عندئذٍ فقط يمكن أن تبتهج.

كنت أعرف محرِّرًا، محرري آنذاك، جون مارك روبرتس، الذي يسعدني أن أذكره، والذي كان يغادر مكتبه في الساعة الخامسة مساء لأخذ أبنائه من المدرسة. بينما كان في إمكانه القيام بأشياء أفضل كل مساء، في قلب باريس، حيث تنبض الرهانات في كل ركن من أركان الطاولات. لقد تمكّن، لا أعرف كيف، من التواجد في المدرسة في ساعة الأمهات، وهو مُسمًّى خاطئ.

كان كلود واحدًا من هؤلاء الذين نظموا حياتهم على هذا النحو. يكون هناك يومَي الثلاثاء والخميس، مهما حدث، فقد القليل من روعته وأناقته، وأجرؤ على قول الكلمة: رجولته. كان يعيش بساطة متعة اصطحاب الأب لابنه من المدرسة، وقد كان أكثر ارتياحًا لفعل ذلك. قد يكون قول هذا أمرًا من الطراز القديم، ولكن إنجاب الأطفال هو أيضًا أمر قديم.

ثم إنه لم يكن واحدًا من هؤلاء الرجال الذين يرددون طوال الوقت أنهم مرهقون، كما أنه لم يتصرف بشكلٍ مبالغ فيه، كما يحب أن يتصرف بعض الأشخاص من جيلنا. كلا، فرغم هاتين الوظيفتين اللتين كان يجمع بينهما، الديسكو والجريدة، لم يتخلَّ عن واجباته كأب، أو توفُّره عند الحاجة، بينما كان تقديم مقالاته في الوقت المحدد، وإدارة فريق مكون من خمسة عشر شخصًا، تسبَّب له في زيادة شديدة في التوتر. لم أرَه قَطُّ يرمي في وجه أي شخص هذه المسؤولية التي تقع على عاتقه، والتي كان يمكن أن يقدِر نفسه من خلالها، لم أشعر قَطُّ أنه يسحق أي شخص، وخاصة أنا، التي كنت أتذمر أحيانًا، من عدم معرفة لماذا ولمن، سأعطي الأولوية. عندما أعيد التفكير في الأمر، أجد أنه فعل بحياته كل ما يحبه، واصطحاب ابنه من المدرسة، أمر كان يثيره بلا شكٍ أكثر من عقد اجتماعات لا نهاية لها مع المسؤولين الآخرين، هذا ما جلب له، بلا شك، التوازن الذي أبقاه واقفًا، وما جعله مضيئًا وجذابًا جدًّا.

لا أتذكر إطلاقًا أن والدي جاء ليعود بي أنا وأخي من المدرسة. لو أني لم أكتب هذه السطور، لما سألت نفسي قَط هذا السؤال. كلا، لقد تركت أمي العمل لتربينا كما جرت العادة في السبعينيات، وكانت هي التي تنظم المناوبات مع نساء أخريات لمرافقتنا حتى انتهاء فترة التعليم الابتدائي، ومساعدتنا في عبور الطريقَين اللذين يفصلان الشقة عن مجموعة المدارس الواقعة في منطقة أخرى من القرية السكنية ZUP. كل الجارات كن هناك. لكن لا يمكن رؤية جار واحد. بينما كان والدي يعمل في لواء جيش في مكتب البريد وكان متفرغًا بعد ظهر كل يوم. الأمر كان أشبه بلغزٍ.

الأمر المؤكد، هو أن المدرسة، ساعات الدراسة، النزهات المدرسية، والعطلات المدرسية، هذا النسق الزمني اليومي والموسمي هو أساس التنظيم في حياتنا، ونحن لم نتهرب منه.

لو أن شيئًا لم يحدث، لم أكن لأتذكر ربما، هذا الاتفاق بين كلود وبيني، الذي يقتضي بتقاسم أيام الأسبوع. لم أكن لأتذكر ربما، أنني كنت أهرع بسيارتي على طول الطريق الدائري، أيام الاثنين والجمعة، عائدة من الضواحي حيث أعمل، وأنني أكون غالبًا آخر من يصل أمام بوابة المدرسة، بينما قلبي يدق بقوة، شاعرة بالتعكر في معدتي، بعد اجتياز الأضواء البرتقالية، وتجاوز السرعة المحددة، والالتصاق بالشخص الذي يقود سيارته أمامي، كما لو أن تسرُّعي سيدفعه إلى التحرك بشكلٍ أسرع.

لو لم يحدث شيء، لما كنت سأشكك في هذا الهوس الذي نعاني منه نحن العاملين، المتمثل في ترك المكتب في اللحظة الأخيرة، وترك مهمة صنع المعجزات للصدفة، ومنح أنفسنا عيش ساعات مليئة، متوترة، مثيرة، وأعيننا مثبتة على ساعاتنا. أتذكر الراديو الذي كنت أستمع إليه في السيارة، والفزع الذي يتملّكني عندما يشير إلى الوقت، كنت عندئذٍ على منحدر الخروج من الطريق الدائري، بينما تركت المعلمة فصلها، بقيت عالقة خلف شاحنة، بينما كان الطلاب قد لبسوا معاطفهم بالفعل، كنت أقود سيارتي بسرعة المشي، بينما كانوا قد عبروا فناء المدرسة بالفعل. اكتشفت وجود طابور طويل عند إشارة المرور، بينما كان على ابني أن ينتظرني أمام المدرسة. أتذكر أن هذا ما حدث، لا أعرف، لكنه حدث. أوف.

يشبه هذا لعبة أطفال، أو جملة نتعلم تركيبها في المدرسة الابتدائية: ركن أخي دراجته النارية في المرأب. فعل، فاعل، مفعول به.

لطالما كنت مهووسة بمكان كل شخص. من يفعل ماذا، في تلك الأماكن الخاصة، الشقق، المنازل التي نعيش فيها، من ينام في هذه الغرفة أو تلك، من يأخذ قيلولة على كنبة الصالون، من يحتكر غرفة الحمام. كيف نتحرك عبر الممرات والسلالم، كيف يتجنب بعضنا بعضًا، كيف يزعج بعضنا بعضًا، وكيف نتجسس. كيف ننظم حياتنا في هذه المساحات، الشرفات والفناءات. كانت هذه هي المرة الأولى التي نمتلك فيها مرأبًا للمنزل. وكان امتيازًا كنًا على وعي به. كان كلود قد استأجر حتى الآن مساحة جماعية على بُعد ثلاثمئة متر من الشقة، لدراجته السوزوكي، مقابلًا تمامًا للمدرسة الابتدائية. أولئك الذين يعيشون مع راكب دراجة نارية يعرفون جيدًا مدى أهمية توفير مرأب بالنسبة إليه، حتى لا أقول هوس.

منذ وقتٍ طويلٍ، وبعد سرقة العديد من الدراجات النارية، أصبح مفهوم المرأب جزءًا من حياته اليومية، تكلفته، مدى بُعده عن المنزل، وقائمة الانتظار التي عليه التسجيل فيها للحصول على واحدٍ في نهاية المطاف. فضلًا عن أن المرأب هو المكان الذي يقوم فيه راكب الدراجة النارية بالتصليح، ويخزن فيه مفاتيح

مقاس 12 بوصة، وزيت المحرك، ومواد التشحيم. كانت محادثاتنا مليئة بالإشارات إلى هذا المكان الإلزامي، وأكثرها تكرارًا: سأقوم بالإصلاح في المرأب. كان المرأب هو الامتداد الذي لا غِنى عنه للشقة، وهو مجال خاص، حيث لم يكن لديَّ ما أفعله فيه، عارٍ جدًا، رطب جدًّا، غير مريح باختصار. مكان لا أملك شيفراته، حيث لم أكن أعرف أين أضع قدمي دون المخاطرة بالاتساخ، أو الدوس على بقعة زيت، أو إيقاع غرض، فضلًا عن الرائحة الكريهة.

بعد المدرسة، كان كلود يذهب دائمًا لتصليح أشياء في المرأب، وابننا لم يكن يجهل شيئًا عن كيفية تغيير المصباح الأمامي، أو ربط كابل الفرامل. كان هذا قبل الفرامل القرصية، أعرف. كان المرأب هو المكان الذي يتحدث فيه الأب والابن لغة من دون كلمات، تتكوَّن من الإيماءات الفنية والصبر اللازم لإضاءة المنطقة المراد إصلاحها بمصباح كهربائي. لقد كان مجالهما السري، اتحادهما المتوائم، حياتهما من دوني.

كان المرأب هو المكان الذي يكون فيه الجو باردًا، أتذكر أننا لجأنا إليه، كلود وأنا، هربًا من الأعين، عندما كنا في الثامنة عشرة من العمر، في الضاحية التي كنا نعيش فيها. كان كلود يمتلك دراجة نارية وقتئذٍ بالفعل، وهذا أيضًا ما جذبني إليه، على ما أظن، كنت أراه دائمًا حاملًا خوذة كبيرة في يده، مع هذا الزوج الضخم من القفازات الجلدية التي لم يكن يعرف ماذا يفعل بها، بمجرد نزوله من دراجته.

عندما يعود كلود وابنه من المرأب إلى المنزل، تكون أيديهما متجمِّدة وخدودهما باردة في أغلب الأحيان، وتكون ركبتا سرواليهما ملطخة بالشحم. لكن داخل عينيهما يوجد ذلك البريق الذي أحب.

أجلت الحديث عن دراجة أخي النارية، التي ركنها في مرأب المنزل الجديد، هذه الدراجة التي يجب أن أركز عليها، لأنها لم تكن مجرد دراجة نارية.

لماذا يقتحم حياتي تاداو بابا المهندس الياباني الذي أحدث ثورة في تاريخ شركة هوندا؟

كيف كان في إمكاني أن أتخيل أن اليابان، البلد الذي لم تطأه قدماي قَطُّ، والبعيد عن مركزي العصبي بنحو عشرة آلاف كيلومتر، سيقرِّر بقية حياتي، أو بالأحرى سيسحقها، من خلال واحدة من أعرق وأهم الشركات المصنعة في العالم، والمهندس الذي يقف خلف ابتكار دراجة CBR 900 Fireblade (مشرط النار) الشهيرة، التي كان كلود يركبها يوم وقوع الحادث، تاداو بابا.

إنه البلد الذي يقدسه عددٌ كبيرٌ من أصدقائي الفرنسيين. بل إن بعضهم يعيش على الطراز الياباني، ويفضِّلون الطاولات التي على مستوى الأرض، وعيدان الأكل على الشَّوك، ويعتنقون أحيانا مبادئ الشنتونية، كذلك النساء اليابانيات اللاتي، لا بد من الاعتراف، بأنهن كنَّ على قدرٍ مثيرٍ من الرقة والتهذيب.

إنه بلد قرأت عنه جزءًا من الأدب، وأعرف تاريخه الحديث، وأفهم أن فيليب فورست، في سارِيناغارا (التي تعني باليابانية «ومع ذلك»)، تصوَّر صدًى قويًّا بين الحداد الشخصي الذي يكتب حوله، والحداد الجماعي لأمة ذُبِحت جزئيًّا بالقنبلة الذرية.

إنها دولة تجبرك على احترامها، حيث يُعدُّ ميثاق شرفها درسًا للعالم أجمع، وبابًا مفتوحًا على الخوف، وحيث أذهلنا تقدُّمها التكنولوجي. يعرف الموسيقيون وراكبو الدراجات النارية ذلك،

الذين اشتروا هوندا، وياماها، وكواسكي، وسوزوكي، وسوني، وكاسيو، وهيتاشي، ويجِّلوا العلامات التجارية التي أعطتهم الصوت، السرعة، الدقة، والإثارة الكبيرة.

الجميع يعلم كيف أحدث مولِّد الأصوات الموسيقية Yamaha DX7 ثورة في موسيقا البوب في الثمانينيات... في جميع أنحاء العالم. كلود لم يكن استثناءً للقاعدة عندما امتلك لوحة المفاتيح الأولى له. الدائرة المتتابعة التي تحدثت عنها في الصفحات الأولى من هذا الكتاب، كانت شركة أمريكية أعادت شراءها ياماها.

كنت سأود مقابلة تاداو بابا، المهندس الياباني الذي كان وراء ابتكار هذه الدراجة النارية الرائعة. حاولت رؤية وجهه بكل الوسائل، فوجدت صورة له تظهره مبتسمًا، مليئًا بالجاذبية، في يده سيجارة، وأسنانه تميل إلى الصفرة قليلًا. في الستينيات المبهرة من عمره. حتى إنني وجدت قمصانًا عليها صورته، بوجهه الجميل، وخصلاته السوداء والبيضاء (تصوير رولاند براون)، مع نقش بالأحرف الكبيرة: BABA. 50% قطن و50% بوليستر. مع تخفيض في السعر، ليصل سعره إلى 14.91 يورو على موقع مبيعات بيكسل شوبينغ.

في أثناء تصفح الموقع، عثرت أيضًا على الصورة نفسها لتاداو بابا، مصمم الهوندا Fireblade، مطبوعة على مجموعة كاملة من المنتجات المخزنة، فناجين قهوة، مناشف حمام، الحقائب الكبيرة، دفاتر الملاحظات، ستائر الدش، أغطية، سجادات اليوغا، حافظات

آيفون، أو بطاقات معايدة. استنتجت أن بابا نجم. بقيت مذهولة. ستارة حمام تحمل صورته، أيضًا.

طلبت منه شركة هوندا إنشاء دراجة Honda 900 CBR Fireblade للمنافسة. كانت الفكرة هي تصور محرك رباعي الأسطوانات قادر على الحلول محل دراجة هوندا الأسطورية RVF 750، للمنافسة في سباق سوزوكا للثماني ساعات، وهو السباق الشهير بالقرب من كيوتو. كان عليَّ أن أتحقق مما تعنيه عبارة «الأسطوانة المضمنة»، حتى لو كنت أعتقد أنها كانت أسطوانات متراصفة (نعم، بالفعل) وأنا أشهد على ذلك. في الوقت نفسه، تبادرت إلى ذهني قصة «ردود فعل مجنونة وأنواع أخرى من الكاربراتير الفاسد» وهو عنوان ذلك الكتاب الأخير الذي كان كلود يقرؤه، وكان لديَّ يقين بأن دراجة هوندا 900 نفسها كانت مجهزة بالفعل بمكربن، وليس بمحرك حقن إلكتروني، كما هي الحال هذه الأيام مع جميع المركبات.

آسفة على الدخول في مثل هذه التفاصيل. طُلب من تاداو بابا «صنع دراجة نارية ستكون خصائصها غير مسبوقة من حيث المكابح وسهولة القيادة، آلة أكثر بديهية في ردود أفعالها من دراجة سباق، لكنها تتوافق مع صناعة منتوج ضخم». أحتفظ طوعًا بالمصطلحات المستخدمة في تاريخ شركة هوندا، والتي تحقق قسم الاتصالات من

صحتها بوساطة أعلى السلطات، حتى تتمكنوا من الحكم على مدى دقة اللغة وأناقتها. وهو ما يعني، بعبارة أكثر فظاظة، صنع دراجة سباق، تشبه ظاهريًا دراجة الطريق. وهذا يُسمَّى تحيُّلًا. هذا يسمى عبقرية التسويق، وهي العبقرية التي يجب إثباتها لتظل مكانتها عالية جدًّا في المنافسة العالمية.

يقال إن تاداو بابا لم يكن مهندسًا مثل الآخرين، انضم إلى شركة هوندا في سن الثامنة عشرة، في عام 1962م (كان عمر العلامة التجارية عشر سنوات فقط في ذلك الوقت)، لم يتبع المسار الكلاسيكي. تعلَّم مهنته في أثناء العمل، وهي بلا شكٍّ أفضل مدرسة، وقام أولًا بتصنيع أغطية المحركات وناقلات الحركة للمركبتين الصغيرتين CB72 وcb77. حتى وصل إلى تطوير التقنيات الأكثر ابتكارًا. يقال إنه كان يختبر نماذجه بنفسه، وإنه كان «رجلًا متهوِّرًا»، وإنه كان يسقط أحيانًا وهو يختبر إحدى دراجاته ال CBR، والتي كان يفترض أنها ترسله إلى الأرض مثلما يُسقط حصان راكبه في أثناء مسابقات الخيول. لقد بنى حقًّا أسطورة لنفسه. اعترتني قشعريرة أسفل عمودي الفقري. إلا أن تاداو قام باختباراته على مسارات محمية مخصصة لهذا الاستخدام، وليس كما كانت الحال مع كلود يوم الثلاثاء 22 يونيو 1999م، في شارع مزدحم جدًّا بوسط المدينة.

كان تاداو بابا شاعرًا أيضًا، من النوع المُلهم الرقيق. لطيف وبيضاوي، على الطريقة اليابانية. لقد نقش على الجانب الأيسر من تصميمه الجديد CBR900 (وهي إحدى خاصيات هذا الموديل الشهير لعام 1998م، الذي ركب عليه كلود): «إلى الأشخاص الذين يريدون معرفة معنى الوزن الخفيف».

والتي يمكن ترجمتها هكذا: «إلى أولئك الذين يريدون معرفة ما معنى الخفَّة».

كل معاني كلمة الخفَّة.

كما ننقش الأحرف الأولى داخل خاتم الزواج، بطريقة سرية.

لماذا خُصِّصت هوندا CBR Fireblade 900 رائدة الصناعة اليابانية والتي كان كلود يركب عليها في 22 يونيو 1999 للتصدير لأوروبا في حين حُزِرت في اليابان؟

ولكن، هذا هو، بما أنني نظرت من كثب، وبما أنني اضطررت إلى البحث فيما لا يُرى بالعين المجردة، فقد قمتُ حتمًا باكتشافات، بما في ذلك تلك الاكتشافات التي كان من الصعب قبولها، لكنها حصة الذي يبحث في العظام، إذا جاز التعبير. في هذه الحالة، فإن العظم الأكثر وضوحًا، هي الاتفاقية بين اليابان والاتحاد الأوروبي، التي سمحت لفرنسا، وبعض الدول الأخرى بتسويق هوندا CBR Fireblade 900، منذ صنعها في عام 1991، حيث قُدِّمت في معرض باريس للدراجات النارية، وكانت أحد أبرز أحداث تلك الدورة من المعرض، في حين أنها لا تزال محظورة في اليابان، فقد اعتُبِرَت خطيرة للغاية، ممنوعة في المدينة المخصصة للمنافسة. عُرِض فيلم مدته أربع دقائق، صُوِّر مباشرة من العرض، يُقدِّم هذه الدراجة الرياضية الرائعة الجديدة، حيث يمكن مقارنة أدائها بـ 1000 من هذه الفئة. قبل إجراء التعديلات المستمرة منذ ذلك الحين، زادت بشكلٍ كبيرٍ نسبة القوة في علاقة بالوزن (130 حصانًا/ 180 كيلوغرامًا، لمن يفهمون ذلك)، ما سمح لها بالوصول إلى سرعة قصوى تبلغ 270 كيلومترًا/ في الساعة على عدَّاد مسافات هذا الطراز الذي نتكلم عنه، أي نسخة 1998، أو الجيل الرابع من

هذه الصناعة، هكذا شجعت الشركة تاداو بابا على فتح سباق غير مسبوق على القوة.

حقيقة أن هذه الدراجة النارية لم تُبَع ولم تُسوّق في اليابان لأنها تُعد خطيرة للغاية، أمر لم أستطع تخطيه، إنه التفصيل الذي ركزت عليه كثيرًا.

عرفت ذلك منذ الأسبوع الذي تلا الحادث، منذ يوم الجنازة، حيث إن صهر كلود، وهو سائق دراجة نارية ذو خبرة ومحترف كبير يحمل رخصة الدراجات، والذي شارك طفولته مع كلود في المنطقة السكنية الحضرية ZUP، قبل أن يتزوج أخته نيكول، عاد ليوضح لي بمودة تفاصيل عن قِطع الغيار، ويفجر في وجهي هذا الخبر الحصري الجديد، الذي لم أتوقعه، والذي تم تأكيده لاحقًا بوساطة بعض الأصدقاء، الذين كانوا معجبين بالدراجات، والذين قالوا إنه كان شيئًا معروفًا في المجتمع، لقد سمعوا جميعًا عن الحوادث التي وقعت على CBR 900. إنها الدراجات التي وصفوها بأنها لا تصلح للطريق، بل للمسارات المخصصة ولحلبات السباق.

شرح لي بول أنه بالنسبة إلى بعض النماذج، كان يوجد في اليابان حق النقض لقوانين المنع، كما هي الحال بالنسبة إلى دراجة 750 كاواساكي نينجا، التي كان يندفع إليها الشباب الفرنسيون أو الإيطاليون أو الإسبان ذوو الدماء الحارة، وأطلقوا عليها بسخرية

اسم دراجة الموت النارية، أو التابوت ذي العجلات. كان الأمر مماثلًا بالنسبة إلى دراجة هوندا CBR 900، آلة للمتدربين، وقنبلة للانتحاريين. محظورة على اليابانيين الذين لا يريدون أن يُرسلوا إلى الموت، حيث إن طرقهم في أغلب الأحيان ضيقة ومتعرجة. تميزت صناعتهم بالإنتاج الوطني والتصدير، مثل كل الصناعات، ولكن بمعايير طريفة. أخبرني بول أيضًا أن سائقي الدراجات النارية الفرنسيين كانوا يسخرون من اليابانيين: لدينا دراجات أفضل من دراجاتهم، هم من يصنعونها! كما لو كان ذلك امتيازًا، كما لو أن هذه الحرية تدل مرة أخرى على تفوق الفرنسيين على العالم كله. هم من يصنعونها، ولكن نحن من نموت عليها. شيء يشبه إلى حد ما، الأسلحة التي ترسلها الصناعة الفرنسية عبر المحيطات، الفرق هو أن السلاح، معروف أنه صُنع للقتل.

دعاني بعض الأصدقاء إلى رفع دعوى قضائية، لكن النتيجة لم تكن لتغيِّر شيئًا، ولم أتخيل أن أقضي بقية حياتي، محاولة إثبات أن رجلًا مات بسبب دراجة نارية، قوية أكثر مما يجب، كنت سأعاني من الألم نفسه الذي يعاني منه أولئك الذين استنشقوا الأسبستوس[1]

(1) الأسبستوس: هو مجموعة معادن من زمرة التريموليت تتألَّف من ألياف تُستخرج من مناجم خاصة، وهي مواد غير عضوية تحتوي على العديد من المعادن الطبيعية يدخل في تركيبها أملاح السيليكات، إلا أنها تختلف عن بعضها في التركيب الكيميائي والخواص الطبيعية لاختلاف كميات الماغنسيوم والحديد والصوديوم

أو من تناول الغليفوسات[1]، أو من تعرَّض للإشعاع في أثناء الخدمة العسكرية في الصحراء الجزائرية. كان عليَّ أن أجمع الأدلة والمزيد من الأدلة، وأن أنفِذ آراء الخبراء، وألا أخرج رأسي من تحت الماء أبدًا[2].

ثم كيف يمكن أن نثبت أن ما أقرَّته الدولة الفرنسية هو في الواقع فخٌّ محفوف بالمخاطر. من يجيز لدراجة نارية مصمَّمة للسباقات بالقيادة في طرقات السير في فرنسا أو إسبانيا أو إيطاليا؟

والأوكسجين والهيدروجين فيها. تكمن خطورته في نوع المواد المعدنية الموجودة فيه، وتعتمد تأثيراته الصحية على المدة الزمنية التي يتعرض فيها الإنسان لغبار ألياف الأسبست، وكذلك على عدد الألياف وطولها ومتانتها. وتبيَّن وجود علاقة وثيقة بين المدة الزمنية للتعرض لألياف الأسبست وشدة التعرض وبين التأثيرات السلبية على صحة الإنسان؛ إذ تظهر أعراض المرض بعد التعرض المزمن لألياف الأسبست الذي قد يصل إلى أكثر من 20 سنة. أما بالنسبة إلى التعرض الحاد توجد دراسات تظهر تأثيراته على الإنسان. (المترجمة)

(1) الغليفوسات: هو مبيد أعشاب ضارة مستخدم على نطاقٍ واسع، وخصوصًا الأعشاب عريضة الأوراق الموسمية والتي تُنافس المحاصيل الزراعيةَ. وهو مركب فسفور عضوي. اكتشفه الكيميائي الأمريكي جون فرانز في شركة مونسانتو سنة 1970. يتميز الغليفوسات بفعاليته للقضاء على الأعشاب الضارة دون الإضرار بالمحاصيل الزراعية، وثمنه الرخيص. يوجد داخل أكثر من 750 منتجًا زراعيًا في جميع أنحاء العالم. حذَّر العلماء من استخدام الغليفوسات، وقالوا إنه يُسبب السرطان، ومن المحتمل أن يكون مسرطنًا للبشر. وبدأت وكالات وطنية ودولية تنظيمية عِدة تأخذ هذه التحذيرات بعين الاعتبار. (المترجمة)

(2) ألا أخرج رأسي من تحت الماء: استخدمت الكاتبة هذه العبارة في مواضع كثيرة، وتعني بها الغرق في وضع سيئ. (المترجمة)

الإجازة، ما معنى ذلك؟ هنا أيضًا، أكتشف أن العلاقة بالخطورة، أي أن هذه المعادلة: الوزن/ القوة، ليست معيارًا. يتم أخذ ما يلي في الحسبان من قِبل «دريال» (المديرية الإقليمية للبيئة والتخطيط والإسكان)، المسؤولة عن الاختبارات: الأضواء الوامضة، أضواء الفرامل، المرايا، لوحات الترخيص، معايير التلوث، والديسيبل (وحدة قياس الصوت). لا شيء يتعلق بالخطورة، حتى لو حققت السلامة في أيامنا هذه تقدمًا هائلًا، مع مضاد الانزلاق، ونظام حماية العجلات، ونظام فرامل ABS، ووضع المطر... وهو ما يجب أن يحدَّ من الأضرار.

كان من المفترض أن يكون كلود مسيطرًا على دراجته، وفقًا لقانون الطرقات. وهذه هي المشكلة أساسًا، التي سنعود إليها لاحقًا. بما أننا لا نعرف أي سببٍ للحادث، وهو ما يقوله تقرير الشرطة. حتى وإن بدا هذا الأمر حقيرًا، أي ما يُعتبَر خطيرًا بالنسبة إلى اليابانيين ليس كذلك بالنسبة إلى الفرنسيين. بموجب أي معاهدة تصدير، وأي ميزان تجاري، أي تبادلات، أي عولمة، وأي معايير اقتصادية؟

قضيت وقتًا في البحث، والدوران حول هذه الفضيحة والآثار التي لا تزال واضحة لهذه المفارقة. أعني الآثار التي تُركت على الإنترنت (لكن في ذلك الوقت لم يكن هناك إنترنت، ما يعني أنه لا يوجد سوى عددٍ قليلٍ من الكلمات)، شهادات، مدونات، منتديات للنقاش، وحتى مراجعات. أردت أن أعرف على وجه اليقين، هل كان

كلود؟ هل كانت الدراجة؟ هل كان هذا بفعل القَدَر الذي تحدثت عنه أعلاه؟ هل كان عدم نضج الذي أقرض، أم الذي اقترض؟ هل كانت بقعة زيت على الأسفلت، لدغة دبور، الشمس التي اخترقت العينين، قطة تعبر؟ هل كانت الفرحة، الحماس الذي يجعلنا نسرع بقوة كبيرة؟ هل كان قلق الانتقال من منزل إلى آخر؟ تعرفون جيدًا كم هو مهمٌّ إلقاء اللوم على شيء ما، حتى لو على أنفسنا.

عدتُ إلى الموقع، وضعت كل شيء في الحسبان، المسار الشرق-غربي، حبوب اللقاح التي تتطاير بين النباتات في هذا الفصل، المسارَين المحميين، موقف الحافلات، موقع صناديق القمامة، الأماكن المخصصة لوقوف السيارات، التقاطع مع شارع جاكييه، بوابات المنازل البورجوازية التي تصطف على جانبَي الشارع، الأسماء المكتوبة على صناديق البريد، كل هذا بحثًا عن علامة.

بعد ذلك، انتهى أمر هذه الدراجة، وفي النهاية سُحِبت هذه الهوندا المخادعة من السوق في عام 2004. وفي الموقع الحالي لشركة هوندا، وهو أعجوبة مواقع الإنترنت؛ إذ إنه مرتب بشكلٍ أنيقٍ، قيل إنها تركت المكان لـ CBR Fireblade 1000، المصنَّفة ضمن الفئة الرياضية، وممنوعة على الطرقات العادية هذه المرة، ما يغلق باب النقاش. العنوان المختار لهذا القسم كان: القوة المطلَقة. لم يعُد ثمة خلط، ولا مزيد من الماضي المضطرب.

تبقَّت لي المواقع الصحفية، مثل «أوتو موتو»، أو «موتو جورنال»، أو «موتو ماغ»، حيث ينشر فيها الصحفيون المقالات والتعليقات. ما قرأته كان بليغًا، وهو أن هوندا CBR 900 «تُسمَح على مسؤوليتك الخاصة، وفي ظروف بغيضة حقًّا، بمسافة صغيرة تبلغ 260 مترًا». لقد أصبحت على دراية بمصطلحات الكارثة، وهذه الكلمات الغنائية عن التعرض للخطر، والتي يجب أن تحفز المرشَّح المحتمَل بإثارة كبيرة.

أضاف أحد الصحفيين: كانت دراجة هوندا CBR 600، عدوانية، لكنها كانت تفتقر إلى القوة الحصانية التي تجعلها خطيرة، أما مع محرك الهوندا 900، فإننا نجتاز القمة.

ولدعم هذا الكشف المثير للاهتمام: «أُعيد الاشتغال على المحرك ذي الأربع أسطوانات لدراجة هوندا CBR 900، لعام 1991، لزيادة القوة والعتو. مع كل القوة التي توفرها ستجد نفسك تتحرك بسرعة جنونية على الطريق. يتوجَّب على المبتدئين الانتقال إلى نموذج أكثر ملاءمة، وإلا سيكونون معرضين للإصابة بالذعر، وأسوأ من ذلك».

هكذا

هذا ما حدث لكلود، عندما توقف عند الضوء الأحمر ثم هَمَّ بالانطلاق مجددًا. ارتكز على العجلة الخلفية، ثم فقدَ السيطرة، ثم الأسوأ بالفعل. هذا الأمر أُعلِن بطريقة جادة جدًا في أحد المقالات في صحيفة متخصصة في الدراجات النارية.

Wheeling تعني العجلة الخلفية، لا أحد كان يستخدم هذا التعبير في ذلك الوقت (باستثناء سائقي الدراجات النارية). أصبحت كلمة رائجة الآن، مع سباقات الدراجات التي تحدث في الضواحي، والتي لا تعدو أن تكون مجرد سباقات للعجلات عالية السرعة.

لا أستطيع أن أصدق أن حياتي قد اختُزلَت في بعض الأحيان في هذه الأشياء، في هذا الوقت الذي أمضيته في محاولة جمع المعلومات من مواقع الدراجات النارية هذه. كنت أبحث عن مجتمع صغيرة، مثلي، دفع ثمن خطورة هذه الهوندا، حتى لو لم أكن أريد أن أكون ضحية، أردت فقط أن أجد تأكيدًا لحدسي.

حاولت أن أطرح أسئلة حذِرة، تحت اسم مستعار، أصبحت: كاربراتير فاسد، انتظرت الحصول على أجوبة، أو معلومات، كنت أخشى أن تغمرني الشهادات، لكن لم يعطِ أحد علامة على الحياة، الأمر الذي بدا غريبًا بالنسبة إليَّ، كما لو كانت هناك رغبة في محو الذكريات السيئة، كما لو أنه تم القيام بفرز بين الصواب وما لا يمكن التفكير فيه. على يد من سيتمُّ هذا الفرز؟

لقد كلّفني ذلك، أن أذهب وأتحدث مع هؤلاء السائقين الذين تخيلت أنه لن يكون لديهم أحاديث إلا عن قدرات المحركات، كما كان كلود يقول بسخرية أحيانًا. لكن ذلك كان ممرًّا ضروريًّا، وواحدًا من الأجزاء الرئيسية للغز الذي بدأت في تفكيكه.

أتخيل الدراجة النارية وهي تغادر ورش عمل هوندا في أوساكا في ذلك العام 1998، النقل بالشاحنات، الطرق البرية، الطرق السريعة، الكورنيش فوق الميناء، ثم تحميلها على متن سفينة شحن، الإجراءات الجمركية، أحد عشر يومًا للعبور، بحار ومحيطات، عاصفة، طاقم السفينة، قناة السويس، البحر المتوسط، المحيط الأطلسي، الوصول إلى ميناء لو هافر، التفريغ، الرافعات، عمال الرصيف، طيور النورس، اعتصام الإضراب الذي أُعلِن في اللحظة الأخيرة، التخزين في المستودعات قبل تصريح الاستيراد، ختم إيصالات التسليم، التخليص الجمركي، التحميل على شاحنة من ماركة Renault Truck، سائق الشاحنة، الذي يحب فعل هذا: توصيل الدراجات النارية، لأنه هو نفسه يسوق الدراجات النارية، إنه بولوني، إنها أوروبا. الموافقة، مستودعات هوندا في ضواحي باريس، دراجة واحدة طلب أخي شراءها، سُلِّمَت في خريف عام 1998 إلى إحدى الوكالات في ليون، أكتوبر، نوفمبر، ديسمبر، يناير، فبراير، مارس، أبريل، مايو. في مرآب أخي، بعيدة، غير موجودة، غير ضارة. ثم فجأة، مركونة في منزلنا، في مرآب المنزل الجديد، التي سننتقل إليها يوم السبت 26 يونيو 1999. دخلت من الباب، لتتطفَّل.

ألخَّص.

المنزل، المفاتيح، أمي، أخي، اليابان، تاداو بابا، أسبوع العطلة، هيلين، مهمَّتي الصحفية. بدأ الأمر في إحداث فوضى كبيرة.

يمكننا أن نتساءل حول هذا المفهوم الجوهري، الذي يُسمَّى تقديم خدمة. ما هو لي هو أيضًا لأخي نوعًا ما. منذ الطفولة. أعطي، آخذ، أعيد. أنت مرة، أنا مرة. نحن عائلة، نتشاجر مع بعضنا، ننظر إلى بعضنا بحدَّة، قد نتبادل ألفاظًا نابية في السر أحيانًا، بسبب المعتقدات السياسية، بسبب هذا التضارب. ومع الحب الذي يرافق هذا كله، فإننا نصير كالبحار الهائجة. نتجاوز حدودنا، وغالبًا لا نصدق آذاننا، لكننا نشرب معًا نخب عيد ميلاد أصغرنا. تمكَّنَّا من إنقاذ هذا. نتبادل جملًا جافة، لا يفهم بعضنا بعضًا، تتعقد الأمور بشدة عندما يدافع أحد الاثنين عن رأيه، يتطاير ريشنا، ومع ذلك نتفق على ما سنهديه لوالدينا. نتجاوز العناد، والأخطاء، ونغض الطرف على اختيارات الحياة، نتقبَّل ونكون متسامحين. إنها الكلمة المقدسة، التسامح. نحن نتسامح لأننا أخ وأخت. ولكن في الواقع، هل يجب أن نتسامح؟ أنا لا أتظاهر بأنني أكثر ذكاءً. ألقي الدروس أحيانًا مثل أي أخت كبرى، لكني أستاء من هذه النبرة الاستعلائية التي تهرب مني في النهاية. أسمع نفسي وأنا ألومه كونه جزءًا من اليسار الأخلاقي: «إذا كان شخص يحب المهاجرين إلى هذا الحد، فلماذا لا يذهب للعيش معهم!» «أصبح الأخلاقي يساريًا إسلاميًا بمرور الوقت». هذا النوع من السخرية، وهذا النوع من الأمثلة، لكننا نظل أخًا وأختًا رغم كل شيء، حتى في أثناء التواء معدتك وسد أنفك.

يجعلني أخي أستفيد من الأسعار التي يعرف كيف يتفاوض عليها في المتاجر، وهو ما لا أستطيع فعله. أنصحه، وهو في العشرين من عمره، بعدم الانضمام إلى الحرب في لبنان. يقدم لي نصيحة ضد المنتجات التي تسقط من الشاحنة. يزوِّدني بإكسسوارات السيارة، كما أعتني بابنته في أيام الأربعاء.

إنه يركب الدراجات النارية، مثل كلود، يحب الرياضية منها، ـ شكرًا لقد فهمنا ـ أما كلود فيركب بسلام على مركبات غير خطيرة، يتحدثان أحيانًا عن الميكانيكا، القيادة، والمعدات. لديهم مكانهما الخاص في الفناء الخلفي، منطقة محادثاتهم، والتواطؤ الذي يحدث بين الأصهار؛ حيث يناقشان صفقاتهما الجيدة مع شركات التأمين.

هل كنت أستطيع أن أقول لا؟ لا، لا يمكنك ركن دراجتك النارية في مرأبي. لا، لست مرتاحة لذلك. لكن لم يكن لديَّ أي تردد، ولا تحفظات، لم يزعجني شيء، لا شيء حقًا. على العكس من ذلك، كنت سعيدة بتقديم هذه الخدمة، سعيدة جدًا لأني تمكّنت أخيرًا من امتلاك هذا المنزل، هذا المكان الذي لم نحلم به، الذي كنا على وشك تحسينه خلال أشهر الصيف، وعلى مدار العام القادم. كنت سعيدة لأنني أصنع معروفًا لأخي، الذي لم تكن لديه الوسائل لشراء منزل، لكن لديه الوسائل، في الوقت نفسه، لشراء دراجة نارية بمبلغ 10.000 يورو. قد يكون الأمر معقدًا، ذنب الشخص الذي لديه الوسائل للقيام بذلك، في حين بالتأكيد، أتذكر أنني كنت أقول،

لكل من أراد الاستماع لذلك، إن هذا المنزل للجميع، نوع جديد من الشيوعية، تشمل الملكية الخاصة أيضًا.

ركن أخي دراجته الهوندا الضخمة في المرأب، أو بالأحرى في الغرفة التي في الطابق الأرضي التي من المفترض أن تصبح غرفة المعيشة المستقبلية، منذ نهاية يوم الجمعة 18 يونيو. قام بربط سلسلة متينة جدًا بالعجلة الأمامية، لحمايتها من السرقة، ثم ربطها بعمود دعم (كانت الغرفة إسطبلًا قديمًا ـ لا يزال في إمكاننا رؤية آثار معلف الحيوانات على الجدران- وفي الأعلى، حظيرة قش تسبَّب وزنها في انحناء العوارض بمرور الوقت، الأمر الذي تطلَّب تركيب الدعائم، هكذا شرح لي عامل البناء الذي سألته إن كان في إمكاني بعد بضع سنوات، إزالة هذه الأعمدة التي في المنتصف، من غرفة المعيشة المستقبلية)، معلنًا أنه ليس هنالك شك في أن شخصًا سيحاول سرقة هذه الغرفة. كان يمسح على حديد آلته، كما يمسح المرء ردف حصان، بكل تلك العاطفة التي كان قادرًا على إبدائها تجاه دراجته، ثم ابتعد كما لو أنه شعر بالندم. جاءت زوجته لتعود به بسيارتها إلى منزلهما. ذهب في إجازة هادئة مع زوجته وابنته، لكن من دون ابننا، وكان من المفهوم أنه سيأخذ دراجته عندما يعود، بعد أسبوع.

قال كلود لصديقنا مارك، الذي قضينا معه بعض الوقت يوم الأحد تحت شجرة الكرز، وذلك لنختبر أثاث الحديقة الذي اشتريناه للتوِّ من سوق السلع المستعملة، قال كلود مشيرًا إلى الدراجة

النارية، التي أدّى وجودها بحجمها الهائل إلى اضطراب وضيق في جو الطابق الأرضي: لمسها ممنوع، إنها قنبلة حقيقية، لا يجب الاقتراب منها.

أعادها عليَّ مارك فيما بعد.

كرَّرها لي مارك، لأنه لم يفهم ما الذي حدث ليغيِّر كلود رأيه.

ما الذي جعله يذهب إلى العمل، يوم الثلاثاء 22 يونيو صباحًا، بدراجة أخي النارية، وليس بدراجته النارية الخاصة، دراجته السوزوكي غير الخطيرة، التي يقودها بهدوء، كما كان يقول، المركونة في المرأب المقابل للمدرسة الابتدائية. ما الذي حدث؟

لا بد أنه تردد وقتًا طويلًا، لأنه لكي يقود دراجة هوندا CBR900، كان عليه الحصول على تأمين شخصي، هذا ما قاله أخي ذات يوم، حسب ما أتذكر. هذه الدراجة النارية المميزة، هذه الدراجة الرياضية خارقة القوة، لن ترغب أي شركة في المخاطرة بتأمينها.

أعتقد أنها كانت طريقة لإثارة إعجابنا، ليسطِّر تحت حقيقة أنه كان يركب دراجة نارية ليست كالأخريات. لقد كانت علامة التميُّز التي كان أخي يحتاج إليها بلا شكٍّ، أم أنها كانت طريقة لإخبارنا أنه كان يعرِّض نفسه للخطر، وأننا يجب أن نقلق عليه.

كان على أخي أن يدفع مبلغًا ضخمًا. لم أعُد أتذكر اسم شركة التأمين هذه، التي اتصلت بها في الأسبوع الذي تلا الحادث، للتأكد من أن كلود قد قام باللازم. الأمر الذي كان يغيِّر الوضع، على المستوى المالي البحت، كما هو واضح. «العالمية» تذكرت اسمها

الآن. أجابني صاحب شركة «العالمية» للتأمين، بـ «كلَّا»، وقال إنه لا أحد باسم كلود.س، حصل على أي تأمين في ذلك اليوم، الأمر الذي أذهلني، إنه تصرف لا يشبهه إطلاقًا.

إن حقيقة أنه أخذ هذه الدراجة النارية التي صرَّح قبل يومين بأنها قنبلة ولا يجب لمسها، بدا لي دائمًا لغزًا يصعب حلَّه. حقيقة أنه تجاوز عن القيام بتأمين شخصي أذهلتني. ثمة شيء لا يدخل إلى عقلي. بمرور الوقت، تساءلت عمَّا إذا كانت شركة التأمين لم تكذب عليَّ، ما هو الدليل الذي عندي على صدقهم، في نهاية الأمر، لم تكن سوى محادثة على الهاتف، وفي ذلك الوقت لم يكن هناك سجل للمكالمات للخطوط الأرضية. كان عليَّ أن أطلب السجل من شركة فرانس تيليكوم، لكني كنت مندهشة للغاية، ولم أتمكن من التفكير في اتخاذ هذه الخطوة، لقد أخذت كلمة شركة التأمين بشكلٍ مسلَّم به؛ لم تكن لديَّ فكرة التحقق، لم يخطر لي ذلك بكل بساطة.

«العالمية»، الاسم المناسب، الذي يضمن هذه الدراجات النارية، إنها المنتجات الحقيقية للعولمة الأكثر إثارة للاشمئزاز على الإطلاق.

لقد حاولت مرارًا تتبُّع آثار اليوم الأخير لكلود.

استيقظ الساعة السابعة، وأيقظ ابننا على الفور. إفطار صامت بشعرٍ غير ممشط. صوت الراديو في الخلفية. يسكب كلود القهوة كعادته. بينما يبدأ ابننا في الثرثرة. هل ستعود أمي إلى المنزل الليلة؟ هل ستأخذ القطار؟ هل ستكون هنا لتناول العشاء؟ (أتخيل أنه كان يطرح هذا النوع من الأسئلة؛ إذ قال لي كلود في أحد الأيام، ليس لديه أسئلة إلا عنك عندما تكونين بعيدة، وقد كان الأمر نفسه بالنسبة إليّ، كان يتحدث إليّ كثيرًا عن أبيه، كان يريد أن يعرف كل شيء.) هل سنذهب لرؤية المنزل الجديد؟ هل سنُحضِر ألعابًا أخرى؟ هل أستطيع أن أريها للويس؟ لهذا السبب أيضًا يكون من المفيد وجود والدين، كلٍّ منهما يكون شاهدًا على هذا الحب الذي يشعر به الطفل تجاه الآخر. هذه السعادة لكونك الشاهد والشخص المقرَّب.

دش طويل لكلود، بمياه ساخنة، كان يحلم برأس الدش الكبير، حيث يسقط الماء منه كالستارة، الذي خطط لتركيبه في المنزل الجديد. دش سريع لابننا، الذي يفضِل المرور عبر القطرات. ثم مرحلة ارتداء الملابس؛ فمن المحتمل أنه سيرتدي ملابس أمس، الشورت نفسه، التيشيرت نفسه، غالبًا، والحذاء ذا الأربطة السريعة، أو الأكثر بساطة، والصندل ذا الأشرطة اللاصقة. الملابس التي كان كلود يرتديها، ستعود لي من المستشفى في كيس قمامة، لم أجرؤ على فتحه في الليلة التالية. القميص الذي تمزَّق منه زرَّان، والجاكيت الجلدي بيرفكتو الذي قُطع بالطول.

سلكا المنحدر المنخفض، لأنهما متأخران مثل كل يوم. كان كلود يرافق ابنه كل صباح، وقد كان الأمر عمليًا، ذلك لأن المدرسة كانت مقابلة للمرأب، أكرر نفسي، نعم أكرر نفسي، ولكنها مشاهد أكررها منذ عشرين عامًا فقط. يجري بهرولة خفيفة على الرصيف الأيسر، بينما تتأرجح الحقيبة الخفيفة (إنها نهاية العام) في الخلف. الابن أمام الأب (حدث أحيانًا أن شاهدتهما من نافذة الحمام وهما ينزلان، حيث كنت أستعد للخروج إلى العمل، بعدهما بوقتٍ قصير).

أعتقد أنه كان الوقت المثالي، أنا خلف النافذة، أغمرهما بنظراتي، الكلمة ليست قوية كفاية، كنت على وعي بكل هذا الجمال، وهذا الحظ الذي كان لديَّ. القبلة السريعة أمام بوابة المدرسة كانت بعيدة على نظري، أو اليد التي تتخلل خصلات الشعر، أو كلتا اليدين. أنا أجهل كيف قالا «إلى اللقاء» في ذلك الصباح.

وماذا بعد؟

الخيار البسيط والمنطقي والطبيعي والأفضل: عبور الشارع الذي أمام المدرسة، والنزول بضع خطوات، عبر فناء صغير، والمشي ثلاثين مترًا، فتح الباب المصنوع من الفولاذ المقاوم للصدأ للمرأب الجماعي. شق الطريق بين السيارات والمقطورات، والخروج بدراجته سوزوكي 650 سافاج، الأمر الذي يتطلَّب خبرة خاصة.

ارتداء القفازات والخوذة، ثم إغلاق باب المرأب. القيام ببعض الخطوات في الفناء، فيما الخوذة لا تزال على رأسه. (لقد لاحظتم بلا شك كيف يبدو سائقو الدراجات النارية خُرق عندما يتحوّلون إلى مشاة، حينما يحتفظون بمكونات هيئتهم، تلك الخوذة الضخمة والمظهر الغريب.) يستعد لتشغيلها بضغطة أو اثنتين على الدواسة (لا أعرف ما إذا كان لسافاج مشغلٌ كهربائي، ولكن لا يهم، أحب أن أتذكر هذه الحركة الفريدة، هذه الطريقة في وضع وزن الجسم على الدواسة، وإطلاق تلك الشرارة، أريد أن أرى هيكل كلود مرة أخرى في أكثر صوره ألفة، وتفردًا، وما كان سيميزه من بين الآلاف، هذا المزيج بين البراعة والقرب من آلته، حركة العارف هذه التي يبدأ بها في تشغيل دراجته، مراوحة بين الإصبع والعين) ثم يقود في اتجاه العمل. هذا يعني القيادة نحو أربعة كيلومترات ونصف في وسط المدينة، وعبور جسر بوكل فوق نهر الرون، الدخول إلى شارع بيلج، ثم شارع غاريبالدي، بلوغ شارع فيبفي-ميرل، مقابل محطة بارت-ديو. ثم الوصول إلى الديسكو قبل الساعة التاسعة بقليل.

متى أدرك كلود أن كل العناصر قد اجتمعت لينحرف عن هذا السيناريو؟ وهو ما يعني، بعبارة أخرى، أن يذهب إلى المنزل الجديد، الذي يبعد مسافة ستمئة متر، وأخْذ دراجة أخي النارية التي كانت مربوطة في العمود؟ هل خطط لذلك، منذ اليوم السابق، منذ الليلة الماضية، في صمت المكالمة الهاتفية التي لم أجرِها؟

أم أنه أدرك أن كل الأضواء كانت خضراء، إذا صحَّ التعبير، في صباح 22 يونيو، بمجرد أن رافق ابنه إلى المدرسة، واخترقته أضواء أيام الصيف الأولى، الحرارة، رائحة زهر الزيزفون على الأشجار، زرقة السماء المسكرة، التي تزيد من البهجة والطاقة عشرة أضعاف؟

هل لمح وميضًا، عندما فتح باب المرأب المصنوع من الفولاذ المقاوم للصدأ، هل شعر فجأة بالحرية لأنه وحيد، حرٌّ جدًّا وشاب جدًّا فجأة، حرٌّ ومتصل بشغف عشرينياته، الذي عاد إليه مثل ومضة، لأنه ـ وهي فرضية ـ لم يكن أمامه لا زوجته ولا ابنه في مجال رؤيته، هل كان بُعدي عنه جغرافيًّا، هو الذي لعب دورًا، ولكن أيضًا الابتعاد الأعمق للمرأة التي كانت تستثمر في العالم الأدبي في باريس، وهو ما يفترض أنه بدأ يشعر به، والذي أثَّر بالضرورة، ولو بشكلٍ ضئيلٍ، على نظرته وتصوره للأشياء؟

هل اعترته ببساطة هذه الرغبة الطفولية، القديمة والعميقة في قيادة آلة ضخمة، أن يُهدي نفسه هذا الشعور الذي سيتذكره لاحقًا، حقنة من الأدرينالين، مثل الجرعة التي يعطيه إياها الروك أند رول في بعض الأحيان، دون أن يصرِّح أبدًا بذلك؟

كان هنا، كان الآن، كان في متناول اليد، أن يجرِّب دراجة نارية، مثل أي رجل آخر يجرِّب سيارة قوية، يجعل المحرك يزأر، والإطارات تصرخ، أليست هذه هي الصورة التي قدمتها جميع أفلام الإثارة منذ وجود السينما، تعظيم هؤلاء الأبطال الذين ينخرطون في مطاردات عنيفة بقدر ما هي ممتعة ـ للسائق والمتفرج على حدٍّ

سواءـ والذين يخلِّدون واحدة من أكثر القصص العالمية المعروفة التي تمثِّل الإنسان المعاصر، التي تعتمد على السرعة والمجازفة والشجاعة والرجولة (مرة أخرى)، التي يتغير مصيرها مع ظهور محرك الاحتراق الداخلي، والكاربراتير الشهير، هو ذاته الذي يشغل مشهدي الداخلي بأكمله. كاربراتير فاسد. كاربراتير مُفسد.

نشأت الرغبة في أن يصبح مغامرًا، في صباح أحد أيام الثلاثاء في الساعة الثامنة والنصف، وجلبت لكلود سلسلة من التجاوزات، ليست شيئًا من قبيل فيم Mad Max، بل أقل إثارة، إنها نوع من المغامرات العنيفة في أثناء ساعات الدراسة.

كلود الأنيق، الراقي، الرصين، المتواضع، هذا هو وجهه الآخر، وجهه الثاني؛ حيث أحببته من أجل ذلك أيضًا.

منطق الآخرين لغز، ما يحدث في أدمغتهم يجعلهم يفكرون، يتكلمون، يكتبون طوال سنوات. كيف نغيِّر سلوكًا معقولًا ومتوقعًا، الذي يمكن أن نسمِّيه ناضجًا، إلى سلوك تجاوزي غريب. ما الذي يجعلك بورجوازيًّا صغيرًا في لحظة ما، تأخذ قرضًا عقاريًّا من البنك، وتكون رب عائلة صالح، ثم فاسقًا في لحظة أخرى، ومستعدًّا لتمزيق كل شيء، لإفساد كل شيء.

الجو حارٌّ جدًّا، لا تذهب إلى هناك.

لا تصعد المنحدر، ألا تشعر بشيء يهددك؟

مشى كلود مسافة ستمئة وخمسين مترًا (لقد تحقَّقت للتوِّ من خرائط جوجل) إلى المنزل الجديد (أو منزل آل مرسييه)، وخوذته تحت ذراعه، وحقيبته على ظهره. المنحدر شديد الانحدار، يمشي وساقه اليمنى تميل قليلًا إلى الداخل، وهو أمر لاحظته عندما كنت في السابعة عشرة من عمري، في المرة الأولى التي جاء فيها لاصطحابي من المدرسة الثانوية من دون دراجته النارية. هذا يتطلَّب جهدًا. عليك أن تكون مصممًا لتتسلق منحدرًا أصعب من منحدر البلفيدير. يجب أن تكون قد قررت. إنه يتقدم للأمام، ويعاني قليلًا. لعله توقف في الطريق، ثم استأنف المشي، لا أستطيع تخيُّل ذلك... رؤيتي ضبابية.

هنالك شيء خاطئ.

قام بفكِّ الدراجة هوندا CBR 900، المركونة في المرأب، هذا المكان المظلم وغير المريح الذي لم تُركَّب النافذة الكبيرة فيه، التي قمت بتركيبها بعد سنوات.

ركب الدراجة النارية، ومن المؤكد أنه واجه صعوبة في تحريك الـ 183 كيلوغرامًا (ثلاثة أضعاف وزنه)، حتى لو حاول تاداو بابا جاهدًا الحصول على محرك خفيف للغاية، فلا يزال يتعيَّن عليه معرفة كيفية التعامل معها.

قام بالتشغيل، اشتغلت كهربائيًا، وتم التحقق من المعلومات، ولكن كيف حصل على المفاتيح؟ (ولن أتحدث عن الأوراق حتى).

المفاتيح، أصرُّ بشدة، كيف حصل عليها؟ لا أتذكر أن أخي أعطاه إياها.

لو كنت قد اتصلت في الليلة السابقة، من على أريكتي الباريسية، هل سيكون هناك شيء في صوتي سيمنعه من ركوب الدراجة النارية؟

لا يوجد سوى الأسئلة السيئة.

بحثت عن الحدث، الخبر، حبة الرمل، أو الأخبار العالمية التي كان من الممكن أن تشتِّت انتباه كلود وتمنعه من أخذ الهوندا. ما الذي كان يتطلَّبه الأمر ليكون كلود يقظًا، أي اكتشاف، وأي عنوان في الصحف، حتى يشمَّ رائحة الخطر التي كانت تملأ الهواء في ذلك اليوم.

أردت أن أسجِّل كل ما حدث في العالم قبل يوم 22 يونيو 1999، وقبل هذا التاريخ بيوم، وقبله بيوم، أي شيء كان يمكن أن يقلب القدَر، شيء كان من الممكن أن يجعله يدرك هشاشة الأيام، يمكن أن يخيفه، ويسبِّب له رعبًا كبيرًا، أي شيء من ذلك النوع الذي يحشر الإنسان في المآزق. لكنني لم أجد سوى معلومات غير ممتعة، قصص عن الروتين البطيء نوعًا ما، الذي سيطر على الكوكب في نهاية القرن العشرين.

لم أجد سوى نتائج رياضية لم تكن مذهلة، مثل فوز أستراليا في لعبة الكريكت على باكستان، دراسات اقتصادية مخدِّرة، من قبيل خسارة Elf معركة السيطرة على نقالة النفط Saga، أخبار سياسية دولية، وجدت أيضًا أخبارًا عن مفتشي الصحة العامة الذين كانوا يحتجُّون بالفعل، ويطالبون بمزيدٍ من الموارد للمستشفيات. رأيت أن الكاتب ماريو سولداتي قد مات، لقد نسيت، ولكن موت ماريو سولداتي، كان من الممكن أن يكون له تأثير بسيط، لكنه

تُوفي عن عمر يناهز الاثنين والتسعين عامًا، وفاة طبيعية، لا شيء غريب أو مثير، لا شيء يبعث الرعشة في العمود الفقري. رأيت أن جاك شيراك حصل للتوِّ على 58% من الآراء الإيجابية وفقًا لآخر استطلاع أجراه IFOP، وأن اجتماع مجموعة السبعة في كولونيا، أسفر عن قرار خفض ديون الدول الأكثر فقرًا، كما رأيت أنه سُجِن صحافيون في إيران.

شعرتُ بخيبة أمل، أردت أن أجد سببًا لوقف مجرى الأمور، في الاتجاه المعاكس، حتى بعد كل هذا الوقت، وإعطاء فرصة أخرى للقصة لتسير بشكلٍ مختلفٍ، كان هنالك بالفعل في كل هذه الأحداث، في هذا الزخم من المعلومات المهمة إلى حدٍّ ما، ما كان من المفترض أن يوقف مسارات كلود. عثرت في أثناء تصفحي لعددٍ من مجلة Nouvel Obs، الذي صدر منذ عشرين عامًا، على صفحة تحدثت عن وفاة إيلي كاكو المبكرة في 19 يونيو 1999. إيلي كاكو، هذا يذكِّرني بشيء ما، وأردت أن أقترب من ذلك الموت، تسعة وثلاثون عامًا، لقد كان تقريبًا في عمرِ كلود نفسه، ولكن في حالته كان ثمة مرض الإيدز، لم أستطع تذكُّره. إيلي كاكو، لقد تذكرت، كان مدام سارفاتي، المنوعة الكوميدية الشهيرة، التي شاهدناها مع العائلة في أثناء الإجازات في الجنوب، وجعلت الجميع يضحكون، لأنه قال إنهم «هناك» تركوا كل شيء، وجاؤوا بأقدام سوداء، مثل كلود ووالديه، وأنهم عادوا «يد للأمام، ويد للخلف»، هذا التعبير الذي استخدمته والدته بلهجتها وحسِّها الساخر الذي تميزت به.

أعادني كل شيء إلى كلود، حتى لو أن موت إيلي كاكو لم يخدم في شيء. أوقفت كل شيء لأشاهد حلقات مسلسل إيلي كاكو على جهاز الكمبيوتر، ظللت متسمِّرة في الغرفة الخلفية التي أصبحت مكتبي، وابتسمت عندما رأيته يمثِّل مشهد الكيبوتز، نقرت وضحكت، إيلي كاكو اللعين، لا بد أنه واجه وقتًا عصيبًا. انتقلت من فيديو إلى آخر، كان الأمر أسهل من الكتابة، لكن بلا جدوى. موت إيلي كاكو لم يمنع موت كلود، لكني على الأقل ابتسمت وأنا أفكر في كلود، قضيتُ وقتًا طويلًا على اليوتيوب، وانجرفت بعيدًا جدًّا، وأدركت بعد عشرين عامًا، كيف اخترقني الحب.

لم أستسلم، ظللت أقتفي أثر الحدث، غير ممكن ألا يكون هناك خبر أو فضيحة أو مأساة قد أثَّرت على كلود في ذلك اليوم، وألا يكون جناح الفراشة[1] قد مسَّه في نهاية الأمر.

الإعلان عن إغلاق محطة تشيرنوبيل لتوليد الطاقة لن يغيِّر شيئًا، ولن يغيِّر الأسبوع البهيج في بورصة باريس شيئًا، ولا توجيه الاتهام إلى كلود إيفين بتهمة القتل غير العمد في قضية الدم الفاسد.

كنت أشعر بالغضب، وكنت أرغب أن أكشف عن هذا التحوُّل الدراماتيكي للأحداث، الذي لو أدَّى شيء إلى آخر، كان سيصل إلى وعي كلود ومنعه من المشي إلى منزل ميرسييه.

(1) تشير إلى مفهوم «أثر الفراشة» ويعني: حدث صغير يؤدي إلى سلسلة من الأحداث الكبيرة وغير المتوقعة. (المترجمة)

كنت متأكدة من وجود هذه المعلومات، وحاولت جاهدةً أن أتذكرها. بعد الاستراحة التي أخذتها مع إيلي كاكو، بدأت بتصفُّح الأجندات، راجعت أرشيف الصحف، تلك الأعداد من صحيفة لوموند الصادرة في عام 1999 (التي كتب فيها كلود أحيانًا) والتي قمت بنقلها معي، ثم احتفظت بها داخل صندوق في متناول اليد، وقد أخبرت نفسي أنني يومًا ما سأجد فيها أثرًا للأيام الأخيرة التي عاشها كلود، سأجد هناك ما يشبه مزاج ذلك الوقت، جوَّه العام، الذي من شأنه أن يربطني به، الذي لا أود نسيانه خصوصًا. كما احتفظت بأعدادٍ من مجلة ليبيراسيون، والمجموعة الكاملة لأغاني Inrockuptibles وRock&FOLK وNew Musical Express، من جميع الصحف التي كان يقرؤها بنهم. في ذلك اليوم، كما هي الحال في أغلب الأحيان، لم أكتب شيئًا، تَصفَّحت الجرائد، شاهدت مقاطع فيديو، تجوَّلت هنا وهناك، تغويني فكرة إيقاف كل شيء مرة أخرى، بدا لي سعيي جنونيًّا بالنسبة إليَّ، ففيمَ سيساعد هذا في النهاية؟

وبعد ذلك، اكتشفتُ مقالًا يروي الحادث الذي تعرض له ستيفن كينغ قبل ثلاثة أيام من حادث كلود، أي يوم السبت 19 يونيو 1999 نحو الساعة الرابعة والنصف مساءً، بينما كان يقوم بنزهته اليومية في ولاية ماين حيث يعيش. أتذكر أن الخبر هزَّنا، لقد نسيتُ تمامًا، صدمت شاحنة صغيرة ستيفن كينغ فسقط في حفرة، وتضرر بشدة، فاقدًا الوعي، مصابًا بكسورٍ عديدة، وضلوع مكسورة، وثقب في الرئة.

كان كلود أحد قراء كينغ، ولكنه معجب كبير بفيلم بشبنينغ، المأخوذ عن أحد كتبه، الذي ألمح إليه عندما اشترينا المنزل، وكان منعزلًا نسبيًّا، هذا الفيلم الذي أثَّرت بكلود كثيرًا موسيقاه (التي تحمل توقيع ويندي كارلوس)، إلى الحد الذي جعلها موضوعًا للدراسة لطلابه (كان يقدم الدروس أحيانًا هنا وهناك).

عندما علمنا بحادث ستيفن كينغ، تساءلنا عن عناوين كتبه الموجودة في مكتبتنا، لكن الكتب كانت معبَّأة بالفعل، بل نُقِلت إلى عنواننا الجديد.

هذه هي المعلومة التي كان من الممكن أن تثني كلود عن تعريض نفسه للخطر، لو أنها فقط كانت أكثر خطورة. إصابة ستيفن كينغ البليغة لم تكن كافية، كان يجب أن يموت.

أُجلي بطائرة هليكوبتر، وتوافد الصحفيون من جميع أنحاء العالم، أمام أبواب المستشفى حيث تردَّد الجرَّاحون في بتر إحدى ساقَيه. كان على وشك الرحيل، وتضرر بشدة، لكنه نجا. وهذا ما أحدث فرقًا كبيرًا، وهذا يذكِّرنا بأن الموت شيء كامن ومختبئ في مكان ما، ولكنه على العكس من ذلك يسبِّب هذه القشعريرة الكبيرة، التي تكهرب المشاعر أكثر مما تهدئها.

ما سأعرفه لاحقًا، بما أنني الوحيدة التي سأستمر في المعرفة، هو أنه ستُوصَف لستيفن كينغ، تلك المسكنات الشهيرة للألم، التي ستجعله يغرق مرة أخرى في إدمانه، وأنه سيطوِّر علاقة هوس مع

الرقم 19، بما أن ذلك حدث يوم 19 يونيو، كما سأخصِص من الآن فصاعدًا طقوسًا محيِّرة للرقم 22.

لقد أفلت ستيفن كينغ، بعدما اقترب من الكارثة التي كانت ستدفع كلود، بلا شك، إلى التفكير مرتَين، كنت غاضبة من ستيفن كينغ، أظن ذلك، لأنه هرب، ولأنه لم يفعل شيئًا من أجلي قَطُّ.

لم يخطر ببالي قطُّ أن صباح يوم الثلاثاء هذا، كان من الممكن أن يكون ممطرًا. كل ما يتطلَّبه الأمر، في بعض الأحيان، هو عنصر بسيط جدًّا، حتى يتخذ الوجود اتجاهًا آخر. أشياء بسيطة وتافهة مثل الطقس. إنه أمرٌ مدهشٌ. ولأكون صادقة، فإني لم أفكر في الأمر قَطُّ. نحن نُعِد شهر يونيو متخمًا بالرقة والنور، خاصة في ليون، حيث يمكن أن ترتفع درجة الحرارة بشكلٍ مذهل طيلة الانقلاب الصيفي. مع العواصف التي تهددنا من وقتٍ إلى آخر في نهاية اليوم، يمكن لمنظمي «ليالي فورفيير» أن يؤكدوا ذلك. أتذكر حفل «تيندرستيكس»، حيث كان أفراد الفرقة في حالة سُكر تام، إلى درجة أن المغني ستيوارت ستابلز كان سعيدًا بارتدائه تلك السُّترة الكبيرة من التويد، التي نادرًا ما يخلعها على المسرح، فهي تمنحه هذا المظهر البريطاني جدًّا. أصبح الجو باردًا فجأة، وهطل المطر بشكلٍ غزيرٍ للغاية، إلى درجة أنني اشتريت عباءة شفافة ضد المطر من البائع المتجول، الذي كان يدور بين المدارج، وأصبحت أحتفظ بها دائمًا داخل حقيبتي، عندما أذهب في نزهة، إنها عباءة تيندرستيكز، والتي كان كلود سيعشقها.

لم أكن أعتقد أن يوم 22 يونيو 1999، كان من الممكن أن يكون يومًا ممطرًا، وباردًا، ومثيرًا للاشمئزاز تمامًا. كان يمكن للمطر، ولو لمرة واحدة، أن يساهم بشكلٍ مفيدٍ في حياتي، لقلت

عندئذٍ «إن المطر باركنا»، لكان فاجأني عندما نزلت من القطار، وأنا عائدة من باريس، كان سيجعل شعري مجعدًا، وكان سيدفعني إلى الإسراع بخطواتي للبحث عن ملجأ في موقف الحافلات، حيث كنت سألحق بالحافلة الأخيرة رقم 38، للعودة إلى الشقة.

كنت سأصل غارقة في البلل، وفي مزاج سيئ، لكنني كنت سأجلس على طاولة الأكل، وكان كلود سيُعيد تسخين الطبق الذي أعدَّه، ربما ذلك الطبق بالفلفل الحار الذي كان أحد كلاسيكياته، رغم أن هذه فرضية ضعيفة، بما أننا كنَّا مشغولَين بالانتقال، وسيكون من الصعب أن يجد وقتًا للطبخ.

لو أن المطر هطل صباح يوم الثلاثاء، ماذا كان سيقرر كلود؟

يمكن المراهنة أنه لم يكن ليبذل جهدًا للصعود إلى منزل ميرسييه لفصل الهوندا عن العمود، ويمكن التخيُّل بسهولة، أنه بعد مرافقة ابنه إلى المدرسة، كان سينظر إلى السماء، يميل أنفه، ويحتمي بمظلَّته، متجهًا نحو الجنوب، ثم الغرب، بما أننا في ليون نرصد الطقس هكذا، نعاين الأفق في اتجاه نهر الرون ومصفاة فايزين، بحثًا عن شعاع النور ذاك، الذي سيبرز في البعيد، حاملًا أملَ نشر الضوء. الضوء، هذه الكلمة التي تجعلني أفكر في أغنية المجموعة مارك سيبيرج، والمغني فيليب باسكال (وهو أيضًا من أبناء حرب الجزائر، الذي أنهى حياته للتوِ)، التي كثيرًا ما كان يدندنها كلود.

لكن هذا كان من قبل، كان قبل نهاية القرن، عندما لم يكن في إمكاننا معرفة حالة الطقس من هواتفنا المحمولة، كان ذلك عندما

كنّا نسأل السماء والمعطيات الأساسية، مجرِّبين معادلات عشوائية، تجمع بين اتجاه الريح، شكل الغيوم، والتلفُّظ بالكثير من الصلوات.

كان كلود سيرفع رأسه إلى السماء، كما يفعل كل صباح، عندما يفتح نافذة غرفة النوم، ويمد يده إلى الخارج، بحركة سخيفة كانت تجعلنا نضحك، كما لو أن درجة حرارة الطقس تُقاس عادة عن طريق اليد.

كل صباح، كان يراقب الأجواء بخوفٍ كأن حياته تتوقف على ذلك، لأن ركوب الدراجة النارية في الطقس الرطب، لم يكن مثل الركوب عليها بأريحية وهدوء على كورنيش الجزائر. كانت تلك طريقة لتذكير نفسي بأنه ليس هنا حقًّا، وأنَّ وجوده فوق خط العرض 45° كان خطأ، وأنه معه حق، لو أن رياح التاريخ لم تهب على الضفة الشمالية للبحر الأبيض المتوسط، لم نكن لنقلق إطلاقًا بشأن ما نسمِّيه الطقس في البلدان المعتدلة. كان سيقضي حياته، مرتديًا قمصانًا ذات أكمام، في الجو ذي الدفء الأبدي، وكان سيمشي حافي القدمين، وسيركب دراجته النارية من دون خوذة، بدلًا من ارتداء الأحذية والارتعاش من نوفمبر إلى مايو.

لو أن الأمطار هطلت في ذلك الصباح، كان كلود سيعبر الشارع المؤدي إلى المرأب، كان سيتوقَّف ليفكِر، كان سيتنهد، سيحشر رقبته داخل كتفَيه، وكان سيحك، دون شعور، لحيته التي لم يحلقها منذ ثلاثة أيام. كان سيفك بلا شك دراجته السوزوكي سافاج،

بعد تردُّده في ركوب الحافلة، التي تمر على بُعد مئة متر، لم يكن ليستسلم لانتظار هذه الحافلة التي ستأخذه مباشرة إلى المكتب دون أدنى تجديد، وعندما أفكر اليوم في الأمر، يبدو لي مبالغًا فيه إلى درجة أني أكاد أتأثر.

كان ركوب الحافلة أمرًا محبِطًا. فيما يتعلق بالإيقاع، والبروتوكول، فهي طقوس لا تناسبه. الجداول الزمنية، والتذاكر، أن يكون جزءًا من الزحمة دون القدرة على التصرُّف، كل هذا كان يشكِّل شيئًا من أمورٍ تُرعبه نوعًا ما، وتلك الوضعية العمودية، وهو واقف ممسكًا بالقضيب الحديدي، مع جسده الضخم، الذي أظن أنه كان يعيقه.

لم يكن ركوب الحافلة شيئًا يناسبه، وكانت الدراجة النارية هي طريق الهروب المثالي، وهي مناسبة تمامًا للحياة الحضرية التي يعتز بها، مانحة إياه ذلك الشعور بالاستقلالية الذي يجعله مطمئنًا. لم يكن المشي من الأشياء المحبَّبة إليه أو التي يبرع فيها، لا في المدينة ولا في الجبال. لكن مع الدراجة ذات العجلتين وجد مركز ثقله، ونقطة توازنه.

بدأ ركوب الدراجات منذ سنّ مبكرة جدًا، وأعود بذاكرتي إلى تلك الصورة الفوتوغرافية، حيث كان يركب دراجة ثلاثية العجلات في ساحة الجزائر العاصمة. عندما وصل إلى فرنسا، أهداه والداه دراجة للأطفال، ثم وهو مراهق اشترى دراجة كروس مستعمَلة؛ حيث قام باستعراضاتٍ معقَّدة عند سفح الأبراج في حيِّه، وتسابق

على التلال والمنحدرات، وقام بالمخاطر، بما في ذلك على الطريق، حسب ما أخبرني به صديقه آلان، الذي كان يعيش في البناية نفسها في ريليو- لا باب، وهو من شاركه أمسياته وتسجيلاته. بعد ذلك حصل كلود على رخصة قيادة الدراجة النارية، وكانت تلك بداية قصة أخرى.

لو هطلت الأمطار صباح يوم 22 يونيو، لتخلَّى كلود عن الصعود إلى المنحدر، حيث ستكون المياه تتدفق إلى أسفل. لم يكن ليبلِّل حذاءه (كان يحب هذا الحذاء كثيرًا، أنتبه الآن أن المستشفى لم يُعِده لي)، لم يكن ليمشي بين المزاريب حتى يصل إلى منزل ميرسييه. كان سيعلم أنه لا فائدة من تشغيل دراجة هوندا 900، حيث كان سيخاطر بالانزلاق عليها، أنا متأكدة من هذا، لم يكن ليفسد هذه المتعة التي أرادها لنفسه، لم يكن ليستطيع التجول في هذا الطقس السيئ، مع كل هذه القطرات التي ستتجمَّع وتشكِّل قنواتٍ دقيقة على المنطقة الأمامية للخوذة، ما سيؤدي إلى حجب الرؤية عنه، مغامرة لن تستحق كل هذا المجهود.

كلا، كان سيفعل الأشياء نفسها التي يفعلها كل يوم، سيفتح باب المرأب، سيتوجه نحو دراجته، كان سيُخرج بذلة المطر الخاصة به من إحدى الحقائب الجلدية المعلَّقة في مؤخرة السوزوكي، كان سيرتديها على مضضٍ، لأنها الطريقة التي تُلبَس بها بذلات وأحذية المطر، بانزعاجٍ حتى لا أقول بحزنٍ، كان سيسحب السحاب إلى

أعلى، وكان سيدرك أن هذه الرحلة إلى العمل لن تمنحه أي مشاعر، على عكس ما يتوقعه المرء من صباح يوم من شهر يونيو، وهو يركب دراجة نارية، لا نشوة ولا سلام، ولا استعداد لما هو غير متوقع، لا، كان سيجد صعوبة في التحرك بهذا الزي البلاستيكي الذي لا يحبه، والذي اشتراه من سوق الدراجات النارية المستعمَلة، الذي يُقام كل أول يوم أحد من كل شهر، في نوفيل-سور-ساون، والذي نذهب إليه أحيانًا، إذا أردنا البحث عن إكسسوار أو قطعة باهظة الثمن في المتاجر، وأيضًا من أجل متعة التجوُّل بين أجنحة العرض، وأن نكون جزءًا لمدة ساعة أو ساعتين، من مجتمع قلَّما اختلطنا به.

كان كلود سيشغِّل السرعة الأولى، وينضم إلى الطريق وسط رذاذ الماء، ويقود دراجته كما لو أنه مكره، إلى الديسكو، حيث كان سيصل وهو في حالة يُرثى لها بعض الشيء. كان من الممكن أن يكون يومًا لا يثير فيه حسد أحد من زملائه، ولن تلتفت أي فتاة ثانية إلى الوراء بعدما يمرُّ بجانبها، ولاختفت بصمة الروك آند رول التي تميز مظهره.

كان سيقيِّد دراجته النارية في مكانها المخصص لها في مرأب العمل، ثم سيتقدم إلى الأمام، ببذلته التي تقطر، وكان سيسأل الحارس إذا كان في إمكانه تركها لتجف في مكان ما في الممر، وكانا سيقومان بمحادثة ودية حول الطقس، كانا سيقولان إنه من الغريب أن تمطر في ثاني أيام الصيف، وإنه من حُسن الحظ أن هذا لم يحصل البارحة، في يوم عيد الموسيقا، كانا سيراهنان أن المطر

لن يستمرَّ طويلًا، وبالفعل لن يستمرَّ ذلك، وبعد ساعتين سيخف الضغط الجوي، ويهدأ المطر، في الوقت نفسه الذي ستأتي فيه رياح خفيفة من الشمال، خفيفة ولكن مثالية، لأنها كل ما يتطلَّبه تبديد السحب، ولظهر الضوء، ساطعًا ومبهرًا، ولاستأنفت الطيور السمامية[1] دورانها اللانهائي، بين المباني، ولتردد صدى صرخاتها على الواجهات، ولكانت دخلت عبر النوافذ الكبيرة للمكتب الذي كان كلود سيفتحه في النهاية، للترحيب بفصل الصيف.

ولكن في يوم الثلاثاء 22 يونيو، كان الطقس جميلًا، ويمكن للمرء أن يقول إنه جيد بشكلٍ طبيعي في هذا الفصل، وصعد كلود إلى منزل ميرسييه.

(1) الطيور السمامية: هو الاسم العامي الذي يُطلَق باللغة الفرنسية على عدة أنواع من الطيور المهاجرة من عائلة الخطف، وتُشتهَر بالقدرة العالية على الطيران والسرعة وأجنحتها طويلة وذيلها مشقوق. وغالبًا ما يُخلَط بينها وبين السنونو. (المترجمة)

لو أن كلود استمع إلى أغنية «لا داعي للذعر» لفرقة كولد بلاي، وليس «نشيد الموت في فيغاس» قبل مغادرة المكتب

كان كلود قد وصل إلى العمل، على الهوندا الضخمة، السوداء والذهبية، وأطلق حارس غرف استراحة السفينة الضخمة التي تمثِّل مكتبة بلدية ليون، صفيرًا معبِّرًا عن إعجابه.

هل أنت مستعدٌّ لسباق 24 ساعة في لومانز؟ هل قال ممازحًا، وهو يخلط الموضوعات ببعضها؟

بعد بداية مسيرته المهنية، التي بدأت بشكل سيئ -بما أنه وجد عملًا في قسم التعويضات في بنك فرنسا، مدفوعًا بالحاجة إلى إعالة نفسه ماليًا بعد عودته من الخدمة العسكرية- بعد بدايات غير متوقعة، كما كان هو يقول ساخرًا من نفسه، عِلِم كلود أنه سيتم إنشاء منصب في الديسكو، وهو المكان الذي كان يتردد عليه كمستهلك (هذه الكلمة التي جعلت وجهه شاحبًا من الدهشة)، والمكان الذي كان يأخذني إليه كثيرًا أيام السبت.

يجب أن نتذكر تلك الفترة التي سبقت ظهور الإنترنت، عندما كانت وسيلة الاستماع الوحيدة هي الأقراص المضغوطة والأسطوانات الكبيرة، وكانت طريقة نسخها هي الكاسيت. لم نكن نستمع إلى ما نريد وقتما نريد. كان علينا أن ننتظر حتى يُطلِق برنارد لينوار مقطوعاته على الراديو، وحتى يأخذ نقاد موسيقا الروك أرنو فيفيان،

بايون أو ميشكا أساياس، بأيدينا. اشترينا كثيرًا، من هذه المحلات التجارية التي في شارع ميرسيير، أو على جسور كوروا-روس، حيث أنفقنا الكثير من وقتنا ومن أموالنا. لقد طلبنا أشياء من الخارج باهظة الثمن، كانت تستغرق أحيانًا أسابيع لتصل من الولايات المتحدة أو المملكة المتحدة، وكنا نستقبلها كالأطفال. وكنا نتردد على ديسكو البلدية حيث يمكننا استعارة ثلاثة تسجيلات في الأسبوع.

جاءت السعادة من الاختيار المحدود المعروض علينا، ومن الخوف من أن نُخدَع. إلى هذه الاكتشافات التي قمنا بها بالصدفة لأن الأقراص المتوقعة كانت مستعارة أصلًا. السعادة تعود إلى تلك الرغبة التي أظهرناها، والتي غذَّاها الانتظار أكثر. السعادة كانت في القليل والنادر.

للوصول إلى هذا المنصب الذي أراده كثيرًا، بدأ كلود في دراسة تاريخ الموسيقا، الكلاسيكية والشعبية، لأن عليه الاستعداد لمناظرة الوظيفة الحكومية الذي سيسمح له بترك العمل في البنك لينغمس جسدًا وروحًا في عالم الموسيقا. حصل على الوظيفة بأعجوبة، ثم بمرور الوقت، تولّى إدارة القسم دون أن يتخلّى عن تشيلسي وبيرفيكتو (وهو أمر مستحيل في البنك، حيث طلب منه رئيسه أن يلبس البذلة بدلًا من الأحذية الرياضية).

قال إنه في الديسكو، هو من يقرر الشراءات، وأنه يقضي وقته في تجميع كتالوج، والقيام بالاستماع، ثم إلى تحويل مجموعة من الأسطوانات الكبيرة (الفينيل) إلى مجموعة أقراص مضغوطة،

وتساءل حول إمكانية إنشاء قسم لموسيقا الراب (كانت في أوجها)، وقسم لموسيقا الإلكترو، ثم البحث عن الفئة التي يندرج تحتها هذا الألبوم أو ذاك، هل ينتمي إلى موسيقا الهاوس أم الجانغل (أو موسيقا الأدغال)، ولإعادة تنظيم التصنيفات ثم حذفها، وإصدار حكم بأنها قديمة. كان عليه أيضًا أن يخطط لاجتماعات الفريق، ولا يتجاهل إدارة شؤون الموظفين التي لم تكن نقطة قوته، وتحمّل مسؤولية هذا التسلسل الهرمي الذي جعله مديرًا. يتغيَّب كلود أحيانًا، ليعطي دروسًا في دورات تدريبية، حول الاتجاهات المختلفة لموسيقا الروك، في بوردو أو آرل أو نانت. كان يستمع إلى الألبومات مساءً في المنزل، ويدوِّن الملاحظات، ويطلعني على الأشياء التي أحبها. لقد كان هذا أحد أسباب عيشه، الاكتشاف، الاستجلاء، الاستماع، الاستماع أكثر، والنقل إلى غيره.

عِلقت في ذاكرتي تلك اللحظة التي لا يمكن أن تُنسى من بين جميع الذكريات، عندما وصل مع ألبوم دومينيك.أ. «الغمازة»، وحيث أمرني بعدم التحرك، أي الجلوس على الأريكة الصغيرة التي في المطبخ، والاستماع دون القيام بأي شيء آخر (أتذكر الوصية جيدًا). وأتذكر أكتافنا التي تلامست، وأعيننا التي راحت تبحث عن بعضها عندما سمعنا النغمات الأولى لأغنية «شجاعة العصافير»، هذه الأغنية التي ستبقى نشيدنا الخاص، علامة اتحادنا، رمزنا السري، مثلما أصبحت رمزًا لجيلٍ بأكمله. أتذكر الأمسية التي تلت ذلك، بعد العشاء، بعد أن وضعنا ابننا، الذي لم يكن عمره

سوى ثمانية عشر شهرًا، في السرير، واستمعنا إلى ألبوم دومينيك.أ، مذهولَين ومتحمسَين بشدة.

كان يوم ثلاثاء، كانت الساعة تشير إلى الرابعة تقريبًا حسب ساعة الديسكو، كان لا يزال هناك عدد قليل من الأقراص المضغوطة التي تنتظر فوق المكتب قبل أن تجد مساحة على المشغِّل للاستماع الأخير. آلان باشونغ، دافت بانك، كولدبلاي، الموت في فيغاس، بلاسيبو، راديوهيد، ماسيف أتاك. كان كلود يراقب الساعة. كان عليه أن يختار القطعة الأخيرة، التي لن تكون طويلة جدًّا، قبل أن يغادر المكان، ويتسلل بعيدًا في تكتُّم، بينما يلوِّح لزملائه الذين في مجال رؤيته، تلويحة أخيرة قبل أخذ الطريق، الحركة التي لا تبدو صحيحة تمامًا. والتي ستسمح له بعبور باب الديسكو في الوقت المناسب، إذا أراد ألا يصل متأخرًا إلى المدرسة حيث كان ابنه ينتظره (حيث لم يكن ابنه ينتظره).

كان خبيرًا في هذا الروتين الذي يقوم به الجميع، آخر بريد إلكتروني، آخر مكالمة هاتفية، آخر حريف، كل ما نقوم بتقييمه بناءً على الوقت الذي تتطلبه عملية القيام به. مع العلم أن كل تحايل على سير الأمور الطبيعي، سيؤدي حتمًا إلى التأخير، لأنه من المسلَّم به أن الوقت المهني ـ خاصة منذ ظهور البريد الإلكتروني، الذي كان لا يزال هامشيًّا في عام 1999- يفيض مثل نهر، لا يحتمل أي توقف، ولا دقيقة واحدة يُساء استعمالها، خاصة في نهاية اليوم،

حيث توجد دائمًا حالة طارئة يجب حلُّها، وعمل يجب إتمامه، وموعد يجب تحديده، ثمة دائمًا هاتف يرنُّ.

بعبارة أخرى، لم نرَ أحدًا يغادر قبل انتهاء الوقت قَطُّ، لا وجود لشيء من هذا القبيل، حتى في بعض دوائر الوظيفة العمومية.

أقصر مقطوعة كانت «لا داعي إلى الذعر»، لكولدبلاي، 3.27 دقيقة، التي صدرت للتوِ، وظهرت في الصندوق الكرتوني الذي تم استلامه للتوِ من متجر التسجيلات في شارع ميرسيير. لكن كلود كان يرغب في اكتشاف «لحن حزين»، لفرقة «الموت في فيغاس» (حيث لم يعلم مطلقًا أنه سيُستخدَم، بعد بضعة شهور في الإعلان الشهير لماركة لوفيس)، والذي تدوم مدته 5.44. لقد كانت معضلة مدتها دقيقتان احتلَّت رأسه.

من الأفضل عدم قول شيء، ومن الأفضل أن تضحك بصراحة على مثل هذه التفاهة. ثم ما هي الدقيقتان على مقياس الحياة، أو على مقياس يوم واحد؟ دقيقتان، يكفي أن يسرِّع قليلًا في القطعة الموسيقية، أو القيادة بشكلٍ أسرع قليلًا في طريق العودة، ومع ذلك، ففي المدينة، مع إشارات المرور لا فائدة من الإسراع، كان كلود يعلم ذلك، هو الذي لطالما تجوَّل على دراجته الهوائية (دراجته الهوائية التي ما زلت أحتفظ بها في الفناء)، واستنتج أنه سواء على الدراجة الهوائية أو النارية، فإنه يستغرق الوقت نفسه، باستثناء الساحل في طريق العودة، حيث لا بد أن يتلاشى، وهو الفعل الذي كان يعتز به، ذلك لأنه واحد من بقايا هذه اللغة الشعبية التي كانت

عائلته تستخدمها، عائلته التي لطالما تنقَّلت من مدينة إلى أخرى، منذ عودتهم من الجزائر.

ولكن هنا، فإنه سيعود في أقل من خمس عشرة دقيقة، على هوندا 900، وحتى لو وصل بعد جرس المدرسة، فلن تكون مأساة. هذا يحدث مع جميع الآباء، أن يتأخروا أحيانًا (كما سبق أن قلت)، على الأقل أولئك الذين يعملون، نعرف أن آباء آخرين سيحرصون على رعاية ومراقبة الطفل حتى نصل، ولن يُترك طفلٌ على الرصيف وحده، أبدًا. ولكننا سنكون رغم ذلك قلقين، ومحرجين أيضًا بعض الشيء، سنرد المجاملة حتمًا في المرة القادمة؛ إذ هكذا تسير الأمور.

اختار كلود إذن، الاستماع إلى «لحن حزين»، حتى لو كان عليَّ أن أعترف بأنني لست متأكدة (أنا أثق بما أخبرني به إيريك، الذي كان يعمل على بُعد أمتار قليلة، والذي رأى كلود وهو يُعيد الألبوم إلى حافظته)، أنا لا أفعل سوى وضع فرضيات لتخفيف هذه الفجوة التي تحاصرني عندما أحاول تخيل هذا اليوم الأخير. كان «اللحن الحزين» اختيارًا ليجعله متأخرًا بعض الشيء، ما سيخلق بالتالي بعضًا من ارتفاع في الأدرينالين، الذي يمنح للحياة نكهة خاصة.

من الطبيعي أن يكون زمن الإنسان هو زمن تأخُّره. أرغب في الكتابة، فيتأخر الإلهام.

استمعت إلى «لحن حزين» بشكلٍ متكررٍ لعدة شهور، لأن لومي كان مركزًا (وربما مجددًا) على هذه المقطوعة. وعلى هذه الفرقة البريطانية التي أسّسها ريتشارد فيرلس. أعرف كل ثانية من هذه الأغنية المؤذية، التي تبدأ بعزف الغيتارات وصوت أنثوي، ثم تبدأ في امتصاص الإيقاع بلطفٍ، ثم تُشحذ مع دخول موالفة مشوشة، ترتفع قليلًا عندما يدخل غيتار جريء بعض الشيء، مدعومًا بمجموعة طبول، تقدمت تقريبًا إلى الواجهة. اختبرت كل طبقة من الطبقات التي كانت ترتفع، وتتكثّف وتمنح وعاءً على هذه النغمات القليلة المتكررة (fa, mi, re, fa, do, re) التي كانت كثيفة بطريقة يستحيل معها مقاطعتها. أتحدّى أي شخص يستطيع أن يسرّع في أي جزء من مقطوعة «لحن حزين» قبل نهايتها، هذا ما كنت أقوله لنفسي دائمًا، سيكون الأمر بمنزلة إعادة إشعال ضوء الغرفة قبل الوصول للنشوة بقليل.

نصبح جزءًا من التخمة، الاهتزاز، تم أخذ الملاحظات بعين الاعتبار، الاحتفاظ بها، الصعود على مراحل، الذهاب بعيدًا أكثر فأكثر، في نوعٍ من السكينة والإدمان، الغاية من هذا الفيض والتدفق هو أن يكون مخدرًا وداعرًا في الوقت نفسه، في سُمكِ قطنة حيث نغمس أنفسنا فيها على أمل ألا نخرج منها... إنه إحساس جيد جدًّا.

وهنا تكمن المشكلة.

هيا! اقطع الصوت! لا تدع نفسك نهبًا للإغراء.

خذ أشياءك، وغادِر.

أتساءل ما الذي كان سيكتبه كلود عن هذه المقطوعة، في حال كان عليه أن يكتب تقريرًا عنها للصحيفة، وكيف كان سيُلمُّ بهذه القطعة ذات الـ 5.44 دقيقة، التي ليس فيها أي كلمات غير la la la, la la la.

لطالما اعترف بأنه من المستحيل الكتابة عن الموسيقا، ولم يتوقف قَطُّ عن قراءة الأوراق الملهمة لغريل ماركوس أو ليستر بانغس، هؤلاء الأساطير في النقد الأنجلوسكسوني، الذين عرفوا كيف يمنحون موسيقا الروك رسائلهم النبيلة. دعوني أعترف بأنني أحاول من خلال هذه السطور القليلة مفاجأته للمرة الأخيرة. أحب أن يجعله هذا يبتسم على الأقل. هذه الجدية الشاقة التي وضعتها فيها، وهذه القناعة التوضيحية.

كان كلود يكتب بشكلٍ جيدٍ، كانت لديه هذه الموهبة التي سحرتني. كان يقترح عليَّ أحيانًا أن أعيد قراءة مقالاته، عندما لا يكون متأكدًا من أن كل شيء واضحٌ جدًّا، عندما كان يشك في مدى ملاءمة إحدى الاستعارات الجريئة قليلًا. كان يكتب على آلة كتابة النصوص Canon S-50، مساءً في الشقة، أعتقد أنه كان يطبع الورقة ويأخذها معه إلى الصحيفة. بقيت الأقراص المرنة في أسفل الصناديق فترة طويلة قبل أن أجرؤ على فتحها، أظن أن هذا حدث بعد ذلك، عندما اشترى كلود كمبيوتره الأول. انتهيت.

كانت الساعة 15:55 دقيقة عندما انزلق كلود في النهاية نحو المخرج. لم يخصص الوقت لإلقاء التحية على زملائه، الذين كانوا يعرفون عادته الأسطورية في التأخير، فلا يغضبون منه عندما يخرج قبلهم، في يومين من كل أسبوع. ارتدى سترته في الوقت نفسه الذي كان يفتح به الباب. أتخيَّله وهو يحمل حقيبة ظهره، ومفاتيحه، وخوذته، وقفازاته في وقتٍ واحدٍ، محاولًا شد كل شيء إلى جسده، مع الحرص على ترك إصبعًا واحدة حرة للضغط على زر المصعد الذي سيقوده إلى الطابق الأرضي. كان يأمل ألا يستغرق المصعد عدة دقائق للوصول، كما يحصل في كثير من الأحيان، لا يجب أن يعلَق في الطوابق العليا، في الأرشيف على سبيل المثال حيث يعمل غاي، الذي تناول معه الغداء عند الظهر، والذي سيروي لي تفاصيل وجبته الأخيرة، وأشياء أخرى كنت أجهلها.

وصل كلود إلى الطابق الأرضي، وها هو الآن يلقي التحية على الحارس، الذي كان ربما يحرس الهوندا، لم أذهب في التحقيق إلى ذلك الحد، من كان يحرس؟ هل كان مندهشًا أو متشككًا؟ ليس لديَّ أدنى فكرة عن الطريقة التي بدا بها كلود، وحش الدراجة النارية هذا، حيث قام بتشغيل الزر الكهربائي بعد أن ارتدى الخوذة وثبَّت حقيبة ظهره خلف كتفَيه، التي سأعثر فيها بعد إعادة متعلقاته إليَّ، على القفل الفولاذي الكبير، بالإضافة إلى أقراصٍ مضغوطة لكولدبلاي وماسيف أتاك، وقصتَين مصورتين لكويك وفلوبك، كان قد استعارهما من أجل ابنه، وعدد من مجلة انتروكوبتيبل بتاريخ

يونيو 1999، والتي اتخذت كغلاف، فيلم «يوم آخر في الجنة» للمخرج لاري كلارك، والذي خرج إلى الشاشات. جعل المحرك يزأر عندما أدار دواسة الوقود، لكنه بقي ثابتًا، مُظهرًا للحارس الذي كان خلف الزجاج، أو بالأحرى على عتبة الباب، في هواء يونيو الدافئ، أن لديه مواهب أخرى مخفية، وأنه يستطيع أيضًا التحدث بهذه اللغة، إضافة إلى السجل الموسيقي، أنه يمكن أن يكون شيئًا آخر غير مثقف يعمل في مكتبة، يمكنه أن يكون متواطئًا مع رجل الحراسة، الذي لا يسمع ربما الموسيقا نفسها التي يسمعها، ولم يقرأ الكتب نفسها التي قرأها، لكنه يقضي أيامه أمام تلفزيون صغير مثبتٍ في الأعلى على رافعة، والتي يجب أن يرفع رأسه ليشاهدها، ما أدى إلى ضغط فقراته وسبَّب له آلامًا مزمنة. أطلق كلود صوتين أو ثلاثة بالدراجة، بينما كان يحاول المناورة بالآلة التي يبلغ وزنها 183 كيلوغرامًا، ووضعها في اتجاه طريق المغادرة. تأكد من أنه لن ينسى شيئًا. أومأ برأسه إلى الحارس، الذي ردَّ عبر رفع إبهامه. إلى الغد. تشاو يا صديقي أراك غدًا.

كانت الساعة تشير فقط إلى الرابعة. تقريبًا قبل وقت الانصراف في نهاية الأمر.

لو أن كلود لم ينسَ الـ300 فرنك في الصراف الآلي لبنك الشركة العامة

كان على كلود أن يتوقف بشكلٍ غير اعتيادي بالمرة، وأن ينحرف قليلًا عن مساره. أخبرني غاي بهذه الحكاية، التي قالها بعد أسابيع قليلة من وقوعِ الحادث، ولم أعرف حينها كيف أفسرها. كان كلود قد سحب أموالًا قبل الذهاب لتناول الغداء مع غاي في مطعم «كل شيء بخير»، وهو مطعم يقع على زاوية ساحة لافاييت، والذي أُغلق منذ ذلك الوقت، ونسي الـ 300 فرنك في ماكينة الصراف الآلي لبنك الشركة العامة. وسيدرك ذلك في اللحظة التي سيدفع فيها ثمن طبق اليوم والقهوة، أشهد على ذلك غاي، الذي ضحك بصوتٍ منخفضٍ، لأنه كان مفهومًا أن كلود أصبح يراكم الأشياء المنسية والمفقودة، مثل مفاتيح العمل، هذه المفاتيح التي تفتح غرفة العرض، والتي بسببها يتزاحم الجمهور أحيانًا في الممرِّ، في انتظار أن تنفتح الأبواب في النهاية.

في نهاية الأمر، دفع كلود ببطاقته الائتمانية، بما أنه في نهاية الشهر يكون قد استخدم جميع قسائم المطعم، بعد التحقق من جيوب سترته، التي لم يخلعها، حتى في قلب فصل الصيف، لأنه عادة ما يحمل في جيوبه كل ما لديه من أشياء ثمينة، المحفظة، النقود، مجموعة حاملات المفاتيح، نظاراته، وكل شيء آخر لا أعرفه. نادرًا ما كان يخلع سترته الجلدية Perfecto، لسببٍ آخر، وهو ما اعترف

لي به ذات يوم، عندما أبديت له ملاحظة بشأن ذلك، بطريقة نصف مازحة. بما أنه لم يكن ممتلئًا كثيرًا، فقد كان يشعر بالضآلة وربما أيضًا، وبلا شك، كان يشعر أنه خارج عن تلك المعايير التي تتطلّب من الرجال أن يكون لديهم نصف علوي عريض ومفتول العضلات. رغم أن ذلك ما أحببته فيه، تلك القامة النحيلة، ذلك المظهر الحاد، وذلك الجمال الضامر. أراد العودة إلى البنك عندما غادر المطعم، لكنه قريب جدًّا، سوف يقوم بالمرور عند نهاية فترة ما بعد الظهر، في طريق العودة.

كانت الساعة الرابعة بعد الظهر، وكان على كلود أن يسلك هذا المنعطف، قبل أن يذهب لاصطحاب ابنه من المدرسة. سيستغرق الأمر بضع دقائق، حيث يقع بنك الشركة العامة في الشارع الموازي، في الشارع ذي الاتجاه الواحد بالتأكيد، ولكن على بُعد أقل من ثلاثمئة متر. لقد قمت بالتأكد.

ركن بين سيارتين، وحرص على خلع خوذته قبل التقدم إلى النافذة، حتى لا يخيف الموظف، الذي كان من المفترض أن يضغط على زر الفتح الأوتوماتيكي للنافذة بعد رنين الجرس. استقبله شاب يرتدي قميصًا قصير الأكمام، وهو نسخة عن كلود عندما كان في العشرين من عمره، وهو أمر فكر فيه بخوفٍ بلا شك. نظر إليه الشاب بابتسامة وقد زاد حرجه، لأن كلود كان جادًّا ولم يكن يمزح، بحُسن نية تامة، كان صريحًا وواثقًا، كان يأمل أن تكون ماكينة الصراف الآلي، قد ابتلعت الأوراق النقدية، قبل أن يأخذها أحد، وأن يعيد

إليه البنك أمواله، بناءً على شكوى بسيطة. كان عليه أن يملأ استمارة ستجبره على الوقوف دقائق طويلة أمام الحاجز البلوري، وأن يبحث عن رقم حسابه، ورمز البنك الخاص به، ورمز الفرع الخاص به، وأن يبحث عن دفتر شيكاته في جيوبه، ليراجع هذه الأرقام التي لا يحفظها عن ظهر قلب، ثم حاول إعادة كتابتها بقلم لم يعمل، يكرر المحاولة من جديدٍ لأنه أخطأ في عدد الأصفار، ثمّ انتظر حتى يعود الموظف إليه، الذي كان مشغولًا آنذاك في محادثة هاتفية. كان على الموظف أن يوافق على أخذ استمارته وختمها، ومن ثَمَّ فصل إحدى النسخ وإعطائها له، وتسجيل الطلب. الأمر الذي سيستغرق وقتًا أطول مما كان متوقعًا، وسيكون كافيًا لجعل كلود متأخرًا، الذي كان حتى الآن في الوقت الصحيح، كان على هذه المسألة الشكلية أن تؤخره، وأن تجعله يشعر بهذا التوتر في بطنه، الذي يمنحه الإشارة بأن عليه أن يغادر الآن، دون تأخير، وأنه لم يعد لديه أي هامش.

لم أعرف قَطُّ، ما إذا كلود قد استعاد أمواله هناك مباشرة عند شباك الموظف، مقابل هذه الورقة التي ملأها للتوِ، والتي تفيد أنه لم يلمس الـ 300 فرنك التي سحبها موزع الصرف الآلي قبل بضع ساعات، ذلك لأن الأغراض التي سلّمها لي قسم الطوارئ بالمستشفى لم تتضمن أي أوراق نقدية. وبما أنني لم أكن على علم بهذه الحادثة وقت استرداد أشيائه، فإنه لم يخطر ببالي أن أسأل، كما لم أجرؤ قَطُّ على السؤال عن ساعته. وحتى لو عرفت، لست متأكدة من أنني كنت سأجد الطاقة لإبداء الاعتراض أو إبداء الشكوك، أتذكر هذا.

لست متأكدة من أن كلود توقف بالفعل في البنك، كما يقول غاي إنه فعل، ربما قرر أنه لم يعد لديه وقت. ليس لديَّ أي دليل، وليس لهذا أي أهمية. لم أفكر مطلقًا في التحقق مما إذا كان قد خُصِمَت الـ 300 فرنك من حسابه، رغم أنني كنت أمتلك الرمز، ما زلت أتذكره حتى الآن، 2599، لقد كان في إمكاني الحصول على المعلومة على الفور. 2599، كان في إمكاني التحقق من خلال كشف الحساب، الذي وصل إلى صندوق البريد في الأيام الأولى من شهر جولاي.

غادر كلود البنك على عجلٍ، ثم انضم إلى تدفق حركة المرور المؤدية إلى شارع بروتو، الذي يؤدي بدوره إلى شارع بيلج، على طول منتزه الرأس الذهبية، هنا حيث توجد سلسلة متتالية من الفنادق المميزة والمساكن الفاخرة، مع عدم وجود مخبز أو مقهى في زاوية أي شارع. كان يقود دراجته بسرعة معتدلة، لا علاقة لها بالتجربة التي قام بها ذلك الصباح نفسه على الطريق الدائري (لم أتحدث عن ذلك بعد، لأن هذا من شأنه أن يفقدني المسار، وأضيّع خيط السرد، ثم إنني لست مستعدة تمامًا لكتابته)، حيث اختبر السرعة، التعامل مع الطريق، الفرملة، وقدراته الخاصة لامتلاك مثل هذه الدراجة القوية، التي بين يديه لأول مرة. هذا ما أسرَّه لي غاي بعد الحادث، أنه في الصباح، بمجرد أن أخذ كلود الهوندا من منزل ميرسييه، أو بالأحرى من منزله، أراد أن يكتشف ما الذي تحمله ال CBR 900 في جوفها، بما أنه رفع السرعة إلى 200 في الساعة، على الطريق الدائري، في الجزء الذي لا يوجد فيه رادار، حتى فولتكس-أون-فيلين، اندفع في المرايا الخلفية لسائقي السيارات والدراجات الأخرى، مثل صاروخ على المسار الأيسر (لم يكن ثمة أي ازدحام مروري في ذلك الصباح؟)، راح يتفاخر بذلك عندما وصل إلى العمل، فاستعاد مجددًا حماسته المراهقة، وذهب لدغدغة هذه المنطقة المظلمة المتغلغلة في أعماقه، حيث يرقد بلا شك، ما بدا كأنه عنف مدفون منذ تلك الطفولة التي انتُزِعَت منه

في الجزائر، في أثناء الحرب، لعله أراد أن يقوم بتجسيدٍ لجملة «لو ريد»، عِش سريعًا، مُت شابًا، رغم أنني لا أعرف أي شيء، بابتسامة نصفها ملائكي ونصفها شيطاني، ابتسامة تموت من أجلها، أرى هذه الابتسامة الآن، الابتسامة التي جعلتني مجنونة به، ثم مجنونة فحسب.

عندما أفكر في الأمر مجددًا، أجد أن السرعة على الطريق الدائري كان أقل ما يمكن أن يفعله، إذ لم يكن ليستعير دراجة هوندا ليذهب إلى العمل ببساطة، أو ليعلَق بين الحافلات وإشارات المرور. لن يحرم نفسه من الدفع بالمحرك إلى أقصى حدٍ ممكن، ومن سماعه يزأر، ومن أن يكون هذا المفاعل شبه الذري بين ساقيه، والذي يدفع الشخص بسرعة البرق.

ولكن هنا انتهى الأمر، كان عائدًا إلى المنزل بعد انقضاء يومه، بعد انخراطه في روتين جديد، وكان مشغولًا بالفعل فيما سيفعله عندما يصل. مع الرضا الذي يشعر به المرء مع عودته من العمل. أن يكون المرء في بيته من جديد، في حياته الحميمية والخاصة، منعزلًا، محميًا، دون من يشهد على الانتكاس المعهود الذي يعتريه بمجرد أن ينغلق الباب. شوكولاتة الكوت دور التي يأكلها واقفًا أمام الخزانة، وألواح البيض التي اشتراها في علب من أربعة، والحليب الذي يشربه من الزجاجة، وهو يجلس مقرفصًا أمام الثلاجة، والحذاء الذي استبدل به خفًا منزليًا، والذي منح فجأة لرجل الروك

آند رول، مظهرًا أقل عصرية. حقيبة الظهر التي يفتحها ويُخرج منها الألبومات التي سيضعها على القرص الدوار، وهذا الكتاب الذي استعاره، «مؤامرة الحمقى»، والذي أوصى به غاي، والذي وجدته أيضًا في حقيبة ظهره. هنا ينتهي كل شيء، كان سيعود من العمل، وكل شيء سيهدأ. كان سيعيد الدراجة ويربطها إلى العمود، بشكل نهائي. أفكر في هذه الأغنية الغاضبة جدًّا لدومينيك.أ «العمل»، من ألبوم «الذاكرة الجديدة»، التي يمكن أن يكون قد سمِعها خلال النهار، والتي أفرغتها من معناها لكثرة ما بحثت فيها. أعود من العمل، ولا أحد في انتظاري.

الإحصائيات رسمية، وتقول: اثنان من كل ثلاث حوادث خطيرة يقعان في رحلات مألوفة بين المنزل ومكان العمل، هذه الرحلات القصيرة المتكررة التي نتصورها غير مؤذية لأنها معروفة تمامًا. سيكون غياب المغامرة هو الذي يقتل، وغياب الخطر الموضوعي الذي سيصبح الخطر الأكبر. علاوة على ذلك، عندما علمت بالحادث، في المساء، عند عودتي من باريس، لم أتخيل للحظة أنه يمكن أن يكون خطيرًا، كما لو كان من المستحيل أن يسمح الروتين بمثل هذه النتيجة الدراماتيكية. ظهرت الأنانية والتفاهة على الفور، وقلت لنفسي إنه بصراحة، التعرض لحادث قبل الانتقال إلى المنزل الجديد مباشرة، ليس أمرًا ذكيًا، بل سيعقد علينا الأمور كثيرًا، كنت منزعجة لأبعد حدِ.

لطالما كان كلود يمتلك دراجات نارية، منذ دراجته النارية ياماها 125، عندما كان في الثامنة عشرة من عمره ويعيش مع والديه في المنطقة السكنية الحضرية ZUP في ريليو_ لاباب، في الوقت الذي التقيت فيه به، وعندما كان يمر من أمام بنايتي، فيميل بدراجته إلى الزاوية اليمنى، مصدرًا الأصوات، وذلك ليجذب اهتمامي بلا شك ـ هل كان يعلم، أنني بعدما ينبهني صوت المحرك، كنت أندفع خلف نافذة غرفتي، وهو الأمر الذي لم أخبره به قَطُّ ـ، ثم دراجته كاواساكي 650، الأنيقة للغاية إلى حد أنها سُرِقَت في وضح النهار أمام أوبرا ليون، في الشارع الصغير الذي استأجرنا فيه شقتنا الأولى التي طُردنا منها، مباشرة قبل دراجة ياماها 500 إكس تي، الدراجة الأحادية الكبيرة، التي كانت تعز عليه كثيرًا، حيث لطالما طفنا بها جميع طرقات المنطقة، وتعرضنا لحادث في أثناء صعودنا إلى فيلارد دي لانس في 10 مايو 1981، والذي سبَّب لي صدمة في الرأس وفقدانًا في الوعي (لم أعرف قَطُّ لمن صوتت)، وإقامة قصيرة في مستشفى جامعة غرونوبل. أعقب ذلك فترة من ركوب الدراجات الهوائية، قبل أن يشتري دراجته النارية غير المستعملة الأولى، وهي سوزوكي 650 سافاج الشهيرة، التي أحبُّ جاذبيتها وسياقتها السلسة، والتي اضطررت إلى بيعها خلال صيف 1999 لشاب من شامبيري، لم أرد أن أخبره عن سبب اضطراري إلى التخلي عنها. ثم هنالك كل تلك الدراجات التي أنساها، والتي كانت موضع سرقات متكررة، وسوء تفاهم مع شركات التأمين، ومحادثات التقطتها من

هنا وهناك، والتي مكَّنتني من تعلم الكثير من المفردات التقنية المتخصصة والتي كانت ساحرة، وحيث أكد كلود أسلوبه كرجلٍ متمرد على امتلاك السيارات، حريصًا على عدم الوقوف في الطريق، مقاومًا لأي شكل من أشكال الخضوع، وخاصة للازدحام المروري. ناهيك من مقاومة رسوم الطرق السريعة، والتي كان يعبرها دائمًا دون أن يدفع المبلغ الذي يعده مهينًا.

كان كلود يقود دراجته، عادة، كما يمكن القول، على طول الشارع، وهو يتنقل بين السيارات، كما يفعل سائقو الدراجات النارية دائمًا، الذين لا يحتملون فكرة البقاء في الخلف، وتثير جنونهم فكرة تتبع السيارات. كان يتصرف كالنحلة غير الصبورة، التي تطن مائلة إلى جناحها الأيسر، تتعرج ببطء، مانحة نفسها بعض الامتيازات المشكوك فيها، تلتصق قليلًا بك ثم تختفي فجأة.

لقد استمتع بوقته، هذا ما أتخيله، وهو ما آمله أيضًا بلا شك، لقد استفاد من مرونة إعادة التشغيل، وسرعة استجابة الكاربراتير الذي صمَّمه تاداو بابا، لقد كبح جماح نفسه، مكتفيًا بالمناورة الخفيفة بين السيارات التي لم تتجمع بعد في طوابير، كما يحدث في منتصف الظهيرة، بل تتقدم دون عوائق على مسارَي الطريق التي كانت آنذاك محدودة ب 60 كيلومترًا/ في الساعة.

قاد بترنُّح، وتلكَّأ، هذا هو الفعل المسكين الذي تبادر إلى ذهني، بينما المحرك ظل محافظًا على صوته الصحيح، بما أن كل شيء كان يمنعه من القيادة بشكلٍ رياضي، ولم يحرك يده اليمنى

إلا قليلًا على مقبض دواسة الوقود، ولكن في الحقيقة أنا لا أعرف، ربما عبر المنطقة مثل الشهاب، متجاهلًا حركة المرور، في خطٍ مستقيم طويل يتجه قليلًا نحو اليسار، قارضًا قليلًا الشريط الأبيض الذي كان مجرد رمزٍ غير ضارٍ، متجاوزًا الحافلة رقم 38، التي كنت أستقلها، والتي ما زلت أستقلها دائمًا، عندما عدت من المحطة بعد مغامراتي الباريسية، مشتُ على مهلٍ قبل أن تهبط بي في منتصف صعدة لابوكل، على الجانب الآخر من نهر الرون، حيث كنَّا نعيش. يمثِّل نهر الرون الحدود بين الدائرة السادسة ومنطقة كروا روس، حيث تقع المدرسة والشقة التي كنَّا في مرحلة مغادرتها، نهر واسع ومشرق، وفي هذه المرحلة الزمنية كان لا يزال عند مدخل المدينة، بعد شلالات سانت كلير مباشرة، حيث كان يتدفق على شكل رغوة أكثر أو أقل سُمكًا، حسب الوقت من العام، ولكن دائمًا بهذا اللون الأزرق المائل إلى البياض تقريبًا، والذي يذكِّرنا بأن مصدره الجليد. كان نهر الرون وضفافه تُستثمر ابتداءً من شهر يونيو، رغم حظر السباحة، وأكثر من ذلك صيد الأسماك واستهلاك الأسماك، المسمومة بمركبات ثنائي الفينيل متعدد الكلور. أتذكر أننا كنا نتحدث عن ذلك على الطاولة، تلوث مياه نهر الرون هذا، الذي كان يحمل مزيجًا مثيرًا للقلق من النترات والمعادن الثقيلة والمبيدات الحشرية الأخرى، والذي لخَّصناه بهذا الاسم الجديد، ثنائي الفينيل متعدد الكلور PCB، أو البيرالين، والذي كان يحتل آنذاك الصفحة الأولى لجريدة Le Progrés.

أؤجل لحظة توقف رحلة كلود، وتحوُّل الإشارة إلى اللون الأحمر، الإشارة التي أمام متحف غيميت، التي سيكون لها دورٌ حاسمٌ فيما بعد. في هذه اللحظة أنا أتحدث عن ثنائي الفينيل متعدد الكلور، والشواطئ الصغيرة المرتجلة، التي يملؤها شباب يتحركون بين الأعشاب، باحثين عن أشعة الشمس، الدافئة بالفعل، والمنعكسة على النهر، هنالك أيضًا الأزواج غير الشرعيين، والأولاد الذين يلتقون، الطلبة الذين ينعزلون خلف الأشجار ليلفُّوا السجائر، ويواصلوا السهرة حول النار وهم يعزفون على أوتار الغيتار أو آلة الجيمبي، التي يتردد صداها حتى تلة الكروا–روس.

أتردَّد في تغيير هذا الضوء إلى اللون الأحمر، لأنه لو ظلَّ أخضرَ لثانية أخرى، لكان كلود واصل طريقه دون عائق، وحياته أيضًا بلا شكٍّ، ولم نكن لنعرف شيئًا عن هذا اليوم، الذي سيكون مثل غيره من الأيام، لا مميَّزًا ولا غير قابل للنسيان، لم يكن ليثير أي أسئلة، ولن يخلق أي قصة، يوم يعانق ذبذبات الصيف، حيث نتخفَّف فيه من ملابسنا، ونظهر بأذرع عارية، مستسلمين للرياح الدافئة بالفعل في منتصف الظهيرة الحريرية، قبل انتهاء الفصول الدراسية مباشرة، قبل الانتقال إلى البيت الجديد مباشرة، مباشرة قبل هذه الحياة الجديدة التي كنا نعلم أنها سوف تتكشف أخيرًا. كانت تلك رؤيتي للأشياء، ولعلِّي الوحيدة التي تخيلتها بهذه الطريقة. رأيت أن هذا الوصول إلى المنزل الجديد هو نقطة الانطلاق نحو آفاقٍ أكبر، واعدة أكثر. كما لو أنه كان علينا أن ننتظر كل هذا الوقت، ونجد

المكان المناسب لتتخذ حياتنا كبالغين بُعدًا يناسبنا. كان هو في الواحدة والأربعين، وأنا في السادسة والثلاثين. لم نكن سريعين، حسنًا... ليس دائمًا.

لا أعرف كيف تعمل إشارات المرور، منذ ظهورها أول مرة على شكل فانوس غاز دوَّار، في أحد أحياء لندن عام 1868، حيث كان من الضروري أن تكون قادرة على إيقاف القطارات العابرة عند زاوية شارع بريدج، يُشغلها ضابط الشرطة الذي يكون في الخدمة، ولكن يمكننا أن نتخيَّل أن مهندسين يقومون بتعديلها اليوم بناءً على دراسات حول الاكتظاظ المروري، حيث يكون في إمكان الطريق استيعاب حركة المرور بكل السلاسة الممكنة. أحب، عندما أكون خلف عجلة القيادة، أن أكيِّف سرعتي بطريقة تجعلني أتبع سلسلة من الأضواء الخضراء في الطرقات، وأن أكبح سرعتي للمشاركة في متعة رؤية السجادة الحمراء (إذا جاز لي أن أقول ذلك) من الأضواء التي تمرُّ بشكلٍ متتالٍ إلى الأخضر، وتعزِّز الانسجام التام بين الإنسان الذي أمثِّله والآلة الموجودة في الصناديق الإلكترونية. ما من فائدة من القيادة بسرعة، يكفي فقط أن تنتظر حتى ينفتح الطريق أمامك، إنها متعة غامضة.

شغلتني قصة إشارات المرور هذه فترة طويلة، بما أن موضة الدوارات ظهرت منذ ذلك الحين، في الريف أكثر من المدينة، بالتأكيد، كما أنه لم يعُد من الممكن إيقاف الازدحام، الأشخاص، التدفُّق، تقدُّم الوقت، كما لو أن الإنسان المعاصر لا يعاني من

أي انقطاع في دوافعه، مثل الاتصالات التي تتدفق ليل نهار من الصنابير المفتوحة للشبكات. سيصبح الضوء حيوانًا رجعيًا سيُجبِر الإنسان على كسر أنفه على بابٍ مغلق، مدخل لن يكون مفتوحًا على الدوام. شيء أشبه بالحدود المغلقة. جاءت نهاية الرفض. لقد حلّت حرية حركة التجارة، السلع (هذه هي المشكلة)، العملات، والأيديولوجيات محلَّ فكرة أن مجرد ضوء أحمر بسيط يستطيع إيقاف كل شيء.. لكنني أضلل نفسي.

كذلك عندما انتقلَ الضوء إلى اللون البرتقالي أمام متحف غيميه، فيما كان كلود على بُعد مئة متر، وأن لا شيء كان يوحي بما سيحصل، بعد بداية طريق ناعمة كما لو أنه سار على مخمل، دون أن يخفض السرعة أمام بار «دي بروتو»، ثم مصحة المنتزه (التي غيَّرت عنوانها منذ ذلك الحين)، كان يرغب في المرور رغم كل شيء، وهو أمر لم يكن ليضع أحدًا في خطر موضوعيّ؛ حيث لم تكن تُرى أي سيارة آتية من شارع بوالو الموازي. بعد التردد لجزء من الثانية ـأتجاوز، لا أتجاوز، في أي حالة يجب أن أتصرف، إما أن أزيد السرعة دون المخاطرة بالالتصاق بالسيارة التي أمامي، وإما الضغط على الفرامل، مع خطر الاصطدام بالسيارة التي في الخلفـ ولا شك أن الرغبة في أن يكون حكيمًا كانت متغلبة عليه، بما أنه لا يزال يحتفظ في عروقه بالطعم الحارق لجعل هذا الصباح مخالفًا، بينما انتهى به الأمر إلى الانحناء، في أقصى الحدود، لسلطة

الممنوع، أتخيل أن كلود شعر بشيء من المعاكسة التي جعلت أعصابه تتوتر، أسمعه وهو يطلق شتيمة بسيطة، تخرج مثل صفير من بين أسنانه، بسبب هذا التوقف الاضطراري الذي عليه الانصياع له، من خلال خفض السرعة، بسبب المتعة التي كان لا بد من قطعها، والوقوف في مكان واحد مع أولئك الذين يستسلمون، الذين يرفعون الراية البيضاء، الذين يجدون أنفسهم مصنفين على اللوحة نفسها مع سائقي السيارات. توقف الجميع عند خط البداية، جميعهم مخصيون، لنجرؤ على قول الكلمة، وكلهم متأخرون عن الجدول الذي وضعوه لأنفسهم.

في ذلك الوقت، لم يكن يوجد ذلك الهاتف المحمول، الذي تضعه قريبًا منك، وتمسكه لتتفقده في كل مرة تتوقف فيها، عند كل عقبة مرورية، لم يوجد هناك شيء سوى الصبر اللازم لملء الانتظار، محطة الراديو التي نغيِّرها، وحاجب الشمس الذي ننزله لتعديل خصلة في الشعر. فيما يتعلق بسائقي الدراجات النارية، فليس لديهم ما يفعلونه خلال هذه الثواني الثلاثين من الجمود المفروض، باستثناء النظر إلى فتاة عابرة، والتأكد من أن حقيبة الظهر مثبَّتة بشكلٍ صحيح، وأن الوقت الذي على الساعة لم ينفد. صادف أن رأيت اليوم سائق دراجة نارية وهو يتفقد هاتفه، ينظر إليه بينما ينتظر، وينقر عليه بقفازاته.

لقد أصبح التوقف عند الإشارة الحمراء عقوبة مزدوجة، يجب الاعتراف، منذ أن بدأ الفقراء والمشردون واللاجئون يأتون للتوسل منا، خلف زجاج النافذة، حتى نشتري الجريدة التي ستمنحهم ربما إمكانية إخراج رؤوسهم من تحت ماء الفقر، حيث يغرقون، لجمع بعض العملات المعدنية، التي لا يعرف أحدٌ إلى مَن تعود في النهاية، والتي تُمنح كإتاوة عن المرور، إنها ضريبة من نوع جديد. كان كلود يقول إن لا أحد يطلب شيئًا من سائقي الدراجاتَ النارية غالبًا، فالآخرون يعدونهم نوعًا منفصلًا، شيئًا غامضًا تحت الخوذة التي تكون مثيرة للاشمئزاز في معظم الأحيان، وإنهم يتعاملون معهم كما لو أنهم فزّاعات، هل نوجه الكلام إلى غواص، مربي نحل، أو رائد فضاء متوجه إلى القمر؟ يتخيل الناس أن سائقي الدراجات لا يمتلكون وجوهًا ولا محافظ.

يُفترض أن كلود توقف، بحذرٍ أمام متحف غيميه، في وضعية الانطلاق، مستعدًا للمغادرة. أدار رأسه إلى اليسار، ورأى هؤلاء المراهقين يخرجون من متحف التاريخ الطبيعي، يستعجلهم معلمهم، هذا المكان الذي كنا نزوره في بعض أيام الآحاد الشتوية منذ أن رزقنا بطفلنا، حريصين على أن نريه ما يحوي الوجود من أشياء فاتنة، ألواح الخنافس، أو الفراشات المحنَّطة التي كانت في الطابق الأخير تحت السقف الزجاجي، والهيكل العظمي لحوت الأوركا العملاق، الذي أخبرنا ابننا أنه أفظع حوت مفترس في البحار، كما أنه يُسمَّى أيضًا أورسينوس أوركا ـالذي يسبِّب الموتـ الظباء والذئاب

المحنطة، والمومياوات المصرية في القبو، والأقنعة الآسيوية التي جلبها إيميل غيميه بلا شك من رحلاته إلى الشرق الأقصى، التي كانت من اختصاص رجل الصناعة هذا، وجامع التحف الكبير أصيل مدينة ليون، ولد مثل كلود يوم 2 يونيو (هذا تفصيل غبي، لكنني أبحث عن معنى في كل تفصيل) في عام 1836، والذي ساهم في إنشاء المتحف، أحد أكثر الأماكن تناغمًا وهدوءًا في المدينة، والذي أُغلِق منذ ذلك الحين، ونُقِلت جموعاته إلى متحف كونفليونس، في محاولة للتوافق مع العالم المعاصر.

مات كلود قبل أن يعرف هذا، لكن القائمة ستكون طويلة لو بدأت في سرد كل ما يجهله الآن عن العالم، الذي استمر في الدوران من دونه.

عندما نظر كلود في اتجاه مدخل المتحف، حيث يتجمَّع طلاب المدرسة الإعدادية، ربما تذكر ببساطة الضوء الخافت الذي يسيطر على الداخل، أو الهيكل العظمي الضخم لماموث[1]، الذي احتل

---

(1) ماموث: هو جنس من الثدييات الفيلية من فصيلة الفيلة، وهو فيل ضخم منقرض كان يعيش في أوروبا الوسطى قبل مليون سنة، حدد ارتفاعه بنحو 4.5 أمتار حتى منكبيه، وقد عاصر الإنسان ما قبل التاريخ وفي سيبيريا بنوعٍ خاص. وقد اكتشفت أول جثة كاملة لفيل الماموث عند مصب نهر لينا شمالَ سيبيريا، وهي مدفونة تحت طبقة من الجليد الذي حفظها سليمة تمامًا منذ آلاف السنين وذلك في عام

كل مساحة الطابق الأرضي، أو الوقت الذي كان فيه هو نفسه تلميذًا في ريليو-لا-باب، عندما كان المعلمون يستعجلونه على سلالم المدرسة وليس المتحف، حيث لم يكن أحدٌ يصطحب الأطفال من جيلنا إلى أي مكان.

ما الذي أعرفه عن أفكاره الأخيرة، هناك أمام هذه المجموعة من المراهقين المتحمسين لقدوم الأعياد، عندما أوقفته هذه الإشارة المرورية، التي ستوقف وجوده أيضًا. ما الذي حدث في رأسه، على الساعة 4:24 مساءً، يوم الثلاثاء هذا 22 يونيو، في أقصى نهاية القرن العشرين.

هل كان يدندن بأغنية، هل كان يكرر النوتات الثلاثة لأغنية «نشيد الموت في فيغاس»، التي ربما كانت تدور بلا توقف في رأسه منذ أن استمع إليها؟ هل كان يغني «أريد أن أكون كلبك» لإيجي بوب، وهي واحدة من أغانيه الشهيرة التي كان يصفِر بها أحيانًا على طاولة المطبخ، بينما ينقر على إحدى الزجاجات بسكين، لتحقيق تأثير الزجاج المكسور الذي استخدمه إيجي كإيقاع، وهو ما كان يُمتع ابننا الذي أراد النقر أيضًا، والذي سمح له كلودَ بأن يفعل مع الحذر، حريصًا على نقل تراث موسيقا الروك آند رول إليه، وفي الوقت نفسه التعليم الجدير بهذا الاسم.

1798، وهو بأنياب معقوفة وشعر بري. وقد عاصر وحيد القرن الصوفي (النمر السيفي الضخم). (المترجمة)

كان كلود ينتظر تحوُّل الإشارة إلى اللون الأخضر، ليقطع الخط المستقيم الأخير من الطريق قبل نهر الرون، الذي يمكن تقديره بـ 300 متر، قبل جسر بوكلي، ثم الصعدة التي تؤدي إلى المدرسة التي تتخذ اسمَ شارع أوجين-بون، والذي يعرفه سكان الكروا-روس جيدًا، بسبب ضيقه، وواجهات الكانوت، وازدحام حركة المرور فيه كل صباح بين الساعة الثامنة والتاسعة والربع، في اتجاه الهبوط، ومدرسته الابتدائية في منتصف الطريق أعلى المنحدر، قبل المنعطف مباشرة، والسيدة التي تعبر، مرتدية سترة مضيئة وفاقعة، وحيث كان الأطفال يشيرون إليها بالسيدة التي تعبر، مجموعة الآباء المتجمعين أمام البوابة، ومجموعات الأطفال الذين يثيرون الذعر في سائقي السيارات.

كان كلود ينتظر، وكان على بُعد خمس دقائق فقط من المدرسة. ربما كان ينظر إلى المرأة التي في السيارة التي بجانبه، التي كانت تنظر في المرآة للتأكد من أن أحمر شفاهها لا يحتاج إلى تعديل، لكني أفضِل أن أتخيله على بُعد متر واحد أمامها، قدماه مثبتتان على الأرض، وساقاه

الطويلتان مستقرتان جيدًا على الأسفلت على جانبَي الدراجة النارية، قدمه اليسرى مستعدة للتشغيل على السرعة الأولى، وللضغط على ناقل الحركة الذي سيقوم بتشغيل علبة السرعة، في الوقت نفسه الذي يقوم فيه بفكِ القابض بيده اليسرى، قبل استخدام قبضة دواسة الوقود، ما يجعله يبرز من بين السيارات الثابتة.

كان كلود ينتظر، وأتساءل ما هي القوة الخفية، ما هي القوة غير المرئية التي يمكن أن تتدخل حتى تمنعه من الانطلاق، حتى يبقى هناك، حتى لا يواجه هذا الخطر الذي يترصده على بُعد مئة متر.

لا تنطلق.

لا تلعب هذه اللعبة الإلزامية للإشارة الحمراء التي تقرر لك متى تتوقف ومتى تقود. ابقَ هنا، لمشاهدة تلاميذ المدارس وهم صاخبون على درجات المتحف. ابق هنا، محلقًا، تائهًا في أفكارك التي تعود إليك، والتي تقودك إلى المنطقة الحضرية ZUP، في ذلك الفصل حيث كنت تجلس بجانب محمد أميني، الذي سيصبح عازف الغيتار في مجموعة Carte de Séjour، والذي سيدعوك إلى أولى حفلات الروك التي ستذهب إليها. محمد أميني الذي وافته المنية للتوِ وأنا أكتب هذه الأسطر، مثل صديقك رشيد طه، مغني المجموعة، الذي وُلد في العام نفسه الذي ولدت فيه في الجزائر.

ابق هناك. لا تتحرك.

Should I Stay or should I go، يغني جو سترومر، قائد فرقة كلاش في ألبوم Combat Rock، عام 1982. الذي كان كلود يحفظه عن ظهر قلب، والذي حدث أن رقص عليه أحيانًا، بتلك الطريقة التي كان يحرك بها جسده المرِن والأشبه بجسد قطٍ، مشبعًا

بحركات وإيماءات الموجة الجديدة، التي كانت تجعله يمد ذراعيه وساقيه إلى الأمام بالتناوب، محشورًا في سروال ضيق.

لو لم أذهب إلى باريس يوم الثلاثاء 22 يونيو بل يوم الجمعة 18، كما كان مخططًا، لو لم يكن أخي قد صادف مشكلة في إيجاد مرأب، لو أن عائلة ميرسييه لم تستسلم لرغبتي في شراء منزلهم، لو أننا لم نحصل على المفاتيح مسبقًا، لو لم تتصل أمي بأخي، لو لم أرفض عرض أخي بأخذ ابننا معه في إجازة، لو اتصلت من باريس لأخبر كلود ألا يذهب لاصطحاب ابننا من المدرسة.

لو لم يأخذ كلود دراجة أخي النارية، لو لم يترك الـ 300 فرنك في الصراف الآلي، لو أنه استمع إلى كولدبلاي وليس الموت في فيغاس، لو لم يوجد تاداو بابا، لو لم يتم التوقيع على اتفاقيات التجارة الحرة بين اليابان والاتحاد الأوروبي، لو لم يكن الطقس جميلًا، لو لم يُعد دينيس ر. السيارة 2CV إلى والده، لو أن ضوء الإشارة لم يتحوَّل إلى اللون الأحمر... خطوة، خطوة، خطوة، خطوة، خطوة، خطوة، خطوة.

لكن كلود انطلق، وهذا واضح.

شغَّل كلود السرعة الأولى. الشهود لم يرَوا شيئًا، لكنهم سمعوا الصوت الخافت لزيادة السرعة. لم يرَ أحد أي شيء، كما هي الحال دائمًا. ماذا يفعل الناس الذين يتنزهون بأعينهم وحواسهم؟ تقرير الشرطة الذي بين يدَي، رسمي. كلود انطلق بقوة. كأنه يشارك في السباق الياباني الشهير الذي صُمِمت له هذه الدراجة، 8 ساعات من سوزوكا. ولكن يمكننا أن نتخيل أن سباق البقاء هذا لا يتطلَّب بداية سريعة. «على قبعات العجلات»[1]. تعبير مضحك. وهو ما يحيل إلى تأثير العجلات المحتمل. لم أرَ شيئًا. كل ما أعرفه سمعته فقط.

لم يكن كلود أصمَّ، مثل الضجيج الذي أحدثه، رغمه ربما. لم يكن أصمَّ، لكنه كان يعاني من طنين الأذن، منذ بعض السنوات. ويرجع ذلك، من بين أمور أخرى، إلى الاستماع المتكرر للموسيقا بصوتٍ عالٍ. وخاصة في قاعات الحفلات الموسيقية، حيث كانت وحدة الديسيبل[2] غير معدَّلة نسبيًّا، في بداية الثمانينيات، وحيث بدأ في استخدامها بشكلٍ مكثَّف. هذا الطنين كان يحدث في الليل غالبًا، عندما تتوقف الضوضاء الآتية من الخارج، فيبدأ صفير داخلي

---

(1) على قبعات العجلات: تعني رفع العجلات إلى أعلى مستوى. (المترجمة)

(2) الديسيبل: هي وحدة لوغاريتمية تعطي النسبة بين كميَّتين فيزيائيتين، مثل القدرة أو الشدة، وذلك بالنسبة إلى قيمة عيارية. يستخدم في الصوت وفي الإلكترونيات. تعني هذه الوحدة لوغاريتمية أنه إذا زادت القدرة أو الشدة إلى الضعف، يزداد الديسيبل بمقدار 3 dB. تُستخدَم وحدة الديسيبل في القياسات العلمية والهندسية، وبصفة خاصة في علم الصوت والإلكترونيات. (المترجمة)

في احتلال مكان، ما يسبِّب ضجيجًا يجعله مضطربًا، إلى درجة أنه يضطر أحيانًا إلى النهوض والتجول في الشقة، إلى أن توافق ترددات الصوت على مغادرة جمجمته.

أعتقد أنني أستطيع القول اليوم، إن تأثير العجلات الشهير الذي ذكره بعض السائقين في المواقع التي استشرتها، لم يكن مقصودًا. تأثير العجلات، أي هذه العجلة الخلفية التي تخضع لها الدراجة النارية بسبب علاقة رياضية تُحسَب من خلال معادلة بين الوزن (خفيف جدًّا) للدراجة النارية وقوتها الهائلة.

هل كان المقبض غير المضبط كثيرًا، «شوية»، كما كانوا سيقولون في عائلة كلود، هو الذي تسبب في وقوف هوندا 900 CBR fireblade رغمًا عنها، ولفظ سائقها على الطريق، أمام فندق كوين أستريد ذي الخمس نجوم، أسطورة قادمة من هذا الشمال الضائع تمامًا، التي كانت ملكة بلجيكا، حتى حادث السيارة الذي أودى بحياتها في أغسطس 1935، عندما كانت بالكاد في الثلاثين من عمرها، وتركب مع زوجها، الملك ليوبولد الثالث، سيارة بوغاتي مكشوفة السقف، بالقرب من بحيرة لوسيرن في سويسرا.

يمكننا أن نرى كل المصادفات المحتملة، وكل العلامات التي يمكن تصورها، في الوقائع والتواريخ، وتداخل هذا الحدث مع ذاك. يمكننا أن نرى كيف تلتقي بلجيكا، واليابان، والجزائر، بشكلٍ مأساوي على أسفلت مدينة ليون، يمكننا أن نتحدث، يمكننا

البحث عن المعنى، حيث لا يوجد أي معنى، ولكن معرفة أن كلود سقط أمام فندق الملكة أستريد، أو دعونا نتجرأ تمامًا، فنقول: عند قدمَي الملكة أستريد نفسها، إنه أمر غبي، ولكن هذا يجعلني أتألم بشكل أقل، كما لو أنه ذهب للانضمام إلى الملكة في قبرها، كما لو أن فكرة وجود مجتمع من ضحايا حوادث الطرقات موجودة. وهو ما يثير دائمًا مسألة الموت المعزول والذي حدث بفعل الصدفة، ما نسميه بالموت العرضي، الذي يوضع في الأخبار في فقرة أحداث متفرقة، مقارنة بالموت الجماعي والأكثر احترامًا، الذي ينتمي إلى الأحداث التاريخية الكبرى. الانزلاق على قشرة موز ليس له معنى الموت نفسه الذي يحمله الموت تحت القنابل أو هجمات دكتاتور. إنه السبب الذي يجعلني أبحث عن شركاء، وأيضًا دوافع خفية، ملتوية وخيالية إلى حدٍ ما، تحليلية نفسية، ولكنها ليست أقل اجتماعية أو سياسية. لا يوجد سبب.

معرفة أن زوج أستريد، الذي كان يقود السيارة، انحرف في أثناء إلقائه نظرة على خريطة الطريق التي كانت زوجته تكافح من أجل فك شفرتها، ثم اصطدم بشجرة قبل أن ينتهي به الأمر في قصب البحيرة، يكاد يُشعِرني بالاطمئنان، ولكن هذا يحيرني أيضًا، ويجعلني أقول إن قيادة السيارة والدراجة النارية، ليس بينهما أي شيء مشترك بالنسبة إلى الراكب، الذي لا يقرأ أبدًا خريطة الطريق على دراجة ذات عجلتين. ليس جزءًا من عملية القيادة، لا تعنيه أي حركة، لا يمكن أن تخرج من فمه أي نصيحة، بسبب الرياح التي

تندفع نحوه، بسبب هدير المحرك، لا شيء من تلك التحذيرات، التي تكون خرقاء أحيانًا، والتي تحدث بين الزوجين في سيارة، حتى ينتهي بهم الأمر أحيانًا إلى رفع أصواتهم وإطلاق التهديدات، ولا سيما التهديد الذي يقول: توقف هنا، أريد النزول. ثنائيو الدراجات النارية يختلفون كليًا. الكلمة ليس شيئًا ليتشاركاه، الأمر متعلق فقط بالتمسك جيدًا، وترك نفسك لتُحمَل بعيدًا، في رحلة الخفَّة، وهو ما لا يمنع الارتعاش بصمت، وإبداء الاستياء ما إن تتم الرحلة.

لو كنت أركب معه في 22 يونيو 1999، لما وقع الحادث. لكن، لم أكن لأكون راكبة، لأن هوندا 900CBR، لا تتسع لشخصين. أو بالنظر من كثب، هنالك وسادة صغيرة سيئة فوق ممتص الصدمات، حيث لم أكن لأوافق على الركوب عليها، وأجد نفسي جالسة مثل ضفدعة في وضع مهين. وهو أمر مناقض تمامًا، لتلك الوضعية المريحة التي تجعل الراكب مستمتعًا، راكبًا أو سائقًا، كما هي الحال على دراجة سوزوكي سافاج التي يمتلكها كلود، نسخة «إيزي ريدر» المخصصة (الأقل بهرجة على الإطلاق)، فيلم دينيس هوبر الذي وضع جحافل من النسخ المتطابقة على الطريق، محاولًا إعادة تمثيل الحلم الأمريكي، في الوقت الذي كان فيه لا يزال لهذا الحلم معنى.

وقت الحادث المذكور في تقرير الشرطة هو الساعة 16.25.

المكان: زاوية الجادة دي بيلج/ شارع فيليكس جاكييه.

فيليكس جاكييه، مشهور غير معروف إذا سمحت لنفسي بقول هذا، يتميز مع ذلك، بأنه كان من أوائل المصرفيين في المدينة، ورئيسًا لدار رعاية المرضى المدنيين في ليون من 1858 إلى 1867. وقد شارك إذن، دون أن يعرف، في استقبال كلود عند وصوله إلى غرفة الطوارئ. اللعنة، كل شيء متصل بكفاءة في هذه المدينة.

سقط كلود عند قدمَي ملكة وبين يدَي مصرفي. لا تحكي جميع المناطق في ليون القصة نفسها. عاش كلود على تلة كانوتس، وهي تلة العمال الذين أثاروا ثورة في عام 1831 (في الوقت نفسه الذي استعمرت فيه فرنسا الجزائر)، ووقع في الأحياء الراقية. حاولت كثيرًا العثور على رمز في هذه الخلطة الغريبة والمتنافرة، لكنني لا أعثر إلا على سخافة تخيب أملي. كلا، ليس هنالك ما يمكن فهمه، ولا ما يمكن رؤيته، كما لو أنني أحاول عصر قطعة قماش جافة. ورغم ذلك...

في الوقت الذي كان فيه كلود يغادر الديسكو، كان من المفترض أيضًا أن يصل سائق السيارة 2CV، من الاتجاه المعاكس، وهو الشخص نفسه الذي سُجِل اسمه في تقرير الشرطة الذي سيُسلّم لي، دينيس ر.، ليأخذ إجازة من الأماكن التي يعمل فيها. مدرسة ابتدائية حيث كان مدرسًا متدربًا. هذا الشاب البالغ من العمر ثلاثة وعشرين عامًا، والذي لا يتحمل أي مسؤولية عن الحادث، كان يقترب ببطء في الاتجاه المعاكس وقت سقوط كلود، ثم انزلق على الطريق.

في الوقت نفسه الذي كان فيه كلود يغادر الديسكو، ركب دينس ر. سيارة 2CV، التي كانت مملوكة لوالده، والتي كان عليه إعادتها إليه للتخلص منها بشكل دائم. لقد كانت الرحلة الأخيرة لهذه السيارة المنهكة. لم يكن ينبغي لدينيس ر. المرور بالشارع في ذلك اليوم، لكنه غيَّر رأيه في اللحظة الأخيرة، وقرر إعادة السيارة عندما خرج من العمل، بدل الانتظار حتى عطلة نهاية الأسبوع. كان هذا مقدَّرًا وسيحدث في كل الأحوال، لا نقاش في ذلك. هذا ما قاله لي عندما التقينا بعد عدة سنوات.

سيارة أبيه. دراجة أخي.

سوف أعلم أن دينيس ر. موسيقي يحب الموسيقا التي يستمع إليها كلود، وأنه أنشأ مجموعة، وسجَّل ألبومًا. عندما شعرت أخيرًا أنني على استعدادٍ للكتابة له، ثم لمقابلته، بعد عشر سنوات تقريبًا، ذهبت في البداية لرؤيته خلال حفل موسيقي، ربما لأقول لنفسي ببساطة: إنه هو، فلأنظر إلى هاتين العينين التي رأتا، اللتين رأتا ما لا أعرفه أنا. غنَّى في افتتاحية ماثيو بوغارتس، الذي أجرى كلود مقابلة معه قبل أشهر قليلة من وقوع الحادث، وقد تذكرت ذلك تمامًا لأنه أحضر لي معه هذا القميص الترويجي ذا اللون الأصفر الكناري، والذي ظللت أنام به لسنوات (والذي احتفظت به حتى عندما أصبح لونه باهتًا)، وكان مكتوبًا فوقه: رائع! وهو اسم الألبوم.

غنَّى دينيس ر. في الجزء الأول من ماثيو بوغارتس، وكان ذلك في Marché Gare de Lyon، الذي دُمِّر أيضًا، ثم جُدِّد منذ وقت قريب جدًّا من اللحظة التي أكتب فيها هذه السطور، في قلب المشروع العقاري الضخم الذي يشوِّه حي كونفليونس. طلبت من ماري أن ترافقني، خاصة أنني كنت أتخيل أنني سأذهب لرؤية دينيس ر. في غرفة تبديل الملابس بعد الحفل، وهو ما لم تكن لديَّ الشجاعة للقيام به، لحسن الحظ.

منذ وقوع الحادث، سجَّل دينيس ر. عدة سيديهات (أقراص مضغوطة) حزينة نوعًا ما، على أحدها أغنية اسمها «أعتذر». والذي لا علاقة له بالأمر بلا شكٍّ، لكنني قررت أن يكون كذلك. يمكنك

جعل كلمات أغنية تقول أي شيء تريده، كما يمكننا أن نجد المعنى في أي ترتيب للواقع.

الرجل البالغ من العمر ثلاثة وعشرين عامًا، هو نفسه الذي كان يقود السيارة 2CV، وهو الذي قدَّم الإسعافات الأولية؛ لأنه بالإضافة إلى كونه مدرسًا وموسيقيًا، فقد كان رجل إطفاء متطوعًا، وهذا أيضًا ما سيقوله لي، في ذلك اليوم الذي حددنا فيه موعدًا في مقهى كروا روس، وأسرَّ إليَّ بالكلمات الأخيرة التي قالها كلود.

عدت من باريس بالقطار السريع TGV، الذي وصل إلى ليون في الساعة التاسعة مساءً، ولم أضطر إلى الركض بما أن منحوتات عثمان سو[1] المعروضة على جسر الفنون، لم تأخذ مني كثيرًا من الوقت، حتى إنني واصلت الطريق مشيًا على الأقدام حتى محطة ليون، لأستمتع بعذوبة الهواء، مستحضرة كل ذبذبات اليوم الإيجابية.

عندما وصلت، كان غاي ينتظرني على حافة الرصيف. أُبلغ بالحادث، ولكن ليس بما أسفر عنه، قال لي فقط إن هنالك إصابة في الكتف. اندهشت لرؤية غاي، لكن ليس كثيرًا. لم تخطر لي الفكرة لأسأله كيف عرف؛ كنا مشغولين بالحدث، وسارعنا للتحرك على الفور.

(1) عثمان سو: فنان نحات سنغالي، وُلِد في 10 أكتوبر 1935 في داكار، تُوفي في 1 ديسمبر 2016 في المدينة نفسها. (المترجمة)

أراد غاي أن يذهب معي إلى الشقة. وبمجرد وصوله إلى هناك، قرر البقاء. كان يتجوَّل في غرفة الجلوس المملوءة بالصناديق بينما كنت أستمع إلى الرسائل الموجودة على جهاز الرد الآلي. لم يكن ثمة أي شيء غير عادي، سوى رسالة واحدة من كريستين، والدة لويس، التي اقترحت أن ينام ابننا في منزلهم بعد حفلة عيد الميلاد، ومكالمتين فائتتين. رفض غاي زجاجة البيرة التي عرضتها عليه.

كان غاي غريبًا، لكنني لم ألاحظ ذلك. كان كل شيء خارجًا عن المألوف لكن ذلك لم يزعجني. ربما كان عقلي قد تأثر بالفعل، وقد بدأ بالفعل في الضغط على زر «الإنكار». اقترح غاي أن نذهب إلى المستشفى للحصول على المستجدات. كان من المستحيل بالنسبة إليه عدم فعل شيء. نعم بالتأكيد، كان علينا أن نكون على عين المكان. كان غاي يقود في شوارع ليون الفارغة. كان يدخن ونوافذ السيارة مفتوحة، قدَّم إليَّ السجائر، ودخنت معه في حرارة المساء. لم يكن الليل قد حلَّ بعد، وكان النهار يتمطَّط، كنت بعيدة عن التخيُّل. عدت من هذا اليوم الباريسي، المملوء بالإشارات الجيدة حول الرواية التي ستصدر، والمملوء ببوادر هذا الموسم الأدبي القادم. كان لديَّ كتاب لكلود في حقيبة يدي، مخبأ في ظرف، نيكو، تلك الرواية التي لن يقرأها.

في مستشفى إدوارد هيريوت، قدَّم غاي نفسه في مكتب الاستقبال، لكن كان لا يزال من المبكر جدًّا أن يعطوه أي معلومة، انتظرت داخل السيارة، ولم أجد بعدُ أي شيء مريب. كان غاي متوترًا وصامتًا، لكنه لطالما كان هكذا. حتى خلال عطلات نهاية الأسبوع العديدة التي قضيناها معًا، مع ميشيل وفيليب وبياترس، في المزرعة التي أقرضه إياها أحد المزارعين في ريف بريسان. عدنا إلى الشقة مرة أخرى، تفقدت جهاز الرد الآلي مرة أخرى، دون أن أجد شيئًا. رفض غاي مرة ثانية البيرة التي عرضتها عليه. أراد أن يجري اتصالًا. عندما أغلق الخط أخبرني أن الأمر خطير. لم أكن أريد أن أعرف، بلا شك. كانت تعابير وجه غاي مبهمة، لكن لطالما كان وجهه هكذا، حتى عندما كنا نجمع الفطر في المروج، حتى وهو يشعل النار في موقد الحطب. صعدت مجددًا إلى السيارة وسمحت لنفسي ألا أقود. تركت لغاي أن يتولى المسؤولية. مشت بنا السيارة، وأتذكر الوقت الذي كان طويلًا جدًّا.

نحو منتصف الليل، وبعد محاولات أخرى للاقتراب من مكتب الاستقبال، دعاني غاي إلى النزول من السيارة. اعتراني شعور بأن صندلي كان كبيرًا جدًّا نوعًا ما، وأن عليَّ أن أعدِّل حزامه. فعلت ما طلبه مني غاي. بعد بضع دقائق من الحيرة والتردد، حيث كنت أرى غاي يظهر ثم يختفي، أحيانًا يقابلني بوجهه، وأحيانًا يعطيني ظهره، تحدثت إليَّ امرأة في موقف السيارات، لا أعرف من أين خرجت، كان المكان مظلمًا حولي، وكنت أجهل أنها طبيبة طوارئ.

كانت هي التي نطقت بالجملة التي شطرت حياتي إلى شطرين: لم نستطع فعل شيء. الجملة التي ستحدد ما قبل وما بعد. الطية الحادة مثل شفرة. حدث ذلك في موقفٍ للسيارات، لا شيء في الخلفية. وجهها في الليل، لم أعرف كيف أتعرف عليه.

استغرق مني الأمر أسابيع لمعرفة الوقت الذي مات فيه كلود. 21:30. راح المستشفى يقذفني من قسم إلى قسم عندما اتصلت. سألوني مرة عن سبب إصراري على معرفة هذه «المعلومة»، كنت أعرف، بشكلٍ حدسي عرفت، لكنني أردت أن أكون متأكدة، أردتُ أن يقال لي إنه انتظرني.

علمت لاحقًا أن طبيبة الطوارئ في موقف السيارات، كانت أيضًا زوجة كاتب العدل، الذي كان صديق غاي المتعاون للغاية. هنا، مرة أخرى، لا يوجد شيء يمكن فهمه، مجرد صدفة بسيطة.

لقاءات، صداقات، تداخلات، خدمات مقدمة. عطلات نهاية الأسبوع في الريف. صُدف. إنها الحياة في جريانها.

لا يوجد شيء ليُفهَم، كل شخص يلعب دوره. كل شخص موجود في مكانه تمامًا وبشكلٍ جيدٍ في المدينة، وبشرعية تامة: الطبيب، كاتب العدل، المعلِم، رجل الإطفاء، الشرطي، أمين المكتبة، المصرفي، الكاهن.. هذا ما يُسمى مجتمعًا.

الجميع يتمتع بالمرونة اللازمة، ليقوم بعمله، الأمور تسير، وقد تتعطّل، لتُستأنف مرة أخرى، نحو الأفضل، ونحو الأسوأ.

الصحفي، موظف دار العزاء، الكاتب.

لا وجود لفرضيات. لا وجود لكلمة «لو».

الكسوف

كان الجميع يتحدثون عن الكسوف. لن تتخيل، الجميع يبحث عن النظارات المخصَّصة لمشاهدة الشمس التي يُفترض أن تختفي خلف القمر في وضح النهار. كان كل شيء يدور حول هذه النظارات فقط، التي يمكن أن تجدها لدى أكشاك السجائر، في مونوبري، في بسطات السوق. هذه النظارات الخاصة وغيرها، وتلك المزيفة التي يجب تجنُّبها لأن هنالك خطرًا لحرق شبكية العين. احتل الكسوف وشغل هذا الصيف الأخير من القرن. كان صيفًا لمرة أخيرة، صيفًا من دونك للمرة الأولى.

أعلن باكو رابان عن نهاية العالم بتحطم محطة مير في باريس، وكنت ممتنَّة له لأنه جلب أخيرًا خبرًا يعنيني. أردت أن أصدِّقه، أردت أن أعطيه الحق، سنُبتلع جميعًا في النهاية، كلنا سواسية، لكنني لم أستطع أن أكاشف أحدًا بهذه الفكرة السيئة.

في 11 أغسطس، لم تكن لديَّ أي مخططات، لا شيء مختلف عن يومي 10 أو 12، كان الأسبوع فارغا جدًّا. دخلتُ هذه الفترة الطويلة من الزمن، كما لو كنت أتقدم في أرض شاسعة وقاحلة. كانا الأسبوعين اللذين كان فيهما ثِيو في المعسكر الصيفي. لم أكن أعرف هل أتركه ليواصل إقامته في الريف أو ألغيها، هل يجب إضافة الفوضى إلى الجنون. أصبحت حياتنا نوعًا من المفارقة. ماذا كنت ستفعل لو كنت في مكاني؟ لكل شيء مبرِّر، وبما أنني كنت الوحيدة التي يجب أن تقرر الآن، لم أستطع التفكير بوضوح. لن أغيِّر أي شيء خُطِط له، لقد بذلنا جهدًا كبيرًا لاختيار هذه الإقامة. وضعت

النظارات الشهيرة في حقيبة ثيو. كان لدينا هذا الأمر على الأقل لنتحدث حوله، لأن الشيء الهائل الذي أصابنا جعلنا عاجزين عن الكلام.

عندما سينظر إلى الكسوف، سيفكِّر بي ربما، أنا التي سترى الشيء نفسه الذي يراه. هو وأنا نتواصل في اللحظة نفسها، شاعرين بالضياع في قلب النظام الشمسي.

وسيفكر فيكَ بلا شك، نجمه الذي اختفى خلف القمر.

استيقظت متأخرة، إلى درجة أن الشمس كانت مرتفعة بالفعل، وكان من المقرر أن يحدث الكسوف على الساعة 11:22 صباحًا. كنت في حاجة إلى الرقم 22 الذي عاد. قمتُ بتشغيل السيارة بعد أن بقيت في الحمام وقتًا مبالغًا فيه، تحت الماء. قطعت الكيلومترات التي تفصلني عن منزل والدي، دون تشغيل الراديو (لم أعد أستطيع الاستماع إلى الموسيقا، فهمت مارغريت دوراس التي قالت إلى أي مدى يمكن للموسيقا أن تدمرها، وهو الأمر الذي كنت أعده حتى الآن تصريحًا متكلفًا إلى حدٍّ ما). طريق سريع، مصطفون، مقطورات، زوارق بخارية، أزواج، أطفال، الحياة التي تتدفق مثل صنبور الماء الفاتر.

حياة الآخرين.

كان عمري ستة وثلاثين عامًا، وكنتُ ذاهبة إلى منزل والدَي لمشاهدة الكسوف. تمنيت أن يكون باكو رابان على حقٍّ.

يا له من شخصٍ مضحك، باكو هذا الذي أحببته فجأة، هو أيضًا فقد والده وهو صغير، برصاص فرانكو، قلت لنفسي إذا نجح باكو رابان، فيجب أن ينجح ثيو، فكرت من خلال ربط الأفكار، وهو أمر اخترقني لا أعرف كيف، قُتل أب رميًا بالرصاص، ثم بعد عشرين عامًا، أصبح الطفل شخصًا بالغًا، وأقام عرض أزياء بفساتينه الاثني عشر، غير القابلة للارتداء والمصنوعة من المعدن والزجاج والجلد، والتي أحدثت ثورة في عالم الجمال. الطفل الذي أصبح مصمم أزياء، كان أول من وضع فتيات سودٍ في عروضه، لقد أغضب العالم هذا الباكو، الذي بدأ في الخروج من جسده في عمر السابعة ليقوم برحلات إلى الكواكب والنجوم، عاش فيها حيوات أخرى، مليئة بالبذخ، حيوات أخرى غير تلك التي ألفت به في مخيمات أرجيليس، مع والدته البسيطة، وشبح ذلك الأب الغائب.

في ذلك الصيف، سخر الجميع من باكو رابان، أردنا بالتأكيد أن نسخر منه ونتعامل معه مثل أحمق، شخص ادَّعى أنه من سلالة الباسك من الأطلنطيين، يعلن عن تدمير باريس، ونهاية العالم، لأنه يثق بتنبؤات المنجم نوستراداموس، الرجل الذي أكد أن عام 1999 هو تاريخ الانفجار العظيم، وكان ثمة مجموعة لم تساعدهم هذه النبوءة، ولكن بعد ذلك لم تساعد أحدًا على الإطلاق.

بينما أنا، فقد كان ذلك يحرِّرني، وخلف مقود سيارتي، صلَّيت، لتظلم السماء على الساعة 11:22، ثم تصبح أكثر فأكثر سوادًا

ووحشية، أن يأكلها الظلام، ثم سرعان ما يشتعل بها حريق، يسقط على الأرض ويشعلها أيضًا.

كنت سأتمنى فقط أن يكون ثيو مقابلًا لي.

ظهر والدي من خلف البوابة، محمومًا، بعدما نبّهه ضجيج سيارتي ال 106، نظر إلى ساعته ثم استعجلني. لا مجال لشرب القهوة، أو الجلوس على الأريكة. لا مجال للسؤال عن حالنا (لم نتمكّن من القيام بذلك على أي حال). ناولَني النظارات التي جهزها لثلاثتنا، وكان قد تحصَّل عليها مع اشتراكه في جريدة Progrés، وأجبرنا على الوقوف على الشرفة، أمي من جهة وأنا في الجهة الأخرى. لقد بدونا مثل شخصيات رسمها إدوارد هوبر، ثابتين أمام المشهد الطبيعي، متجمدين وأقرب للخرقى بينما ننتظر بدء العرض. لم أنظر إلى الأفق منذ يوم الحادث، خائفة من الجمال الذي أصبح شيئًا بعيد المنال بالنسبة إليَّ (أخذتني قريبتي إلى جيفرني في يوليو، حتى أتمكن من التقاط أنفاسي، حاولت الاستمتاع بالمياه، رغم ذلك، كنت لا أزال في حالة إنكارٍ تام، كنت أرى العالم كما لو كان من خلال زجاج، لقد كانت بداية رحلة طويلة حيث يعتريني شعور أني أسافر، جالسة بجوار نفسي).

لعلك كنت في السماء في نهاية الأمر، كما قالت العمة أوليفيا لثيو في يوم جنازتك (والدك سيصعد إلى السماء، لا بد أن ثيو قد ابتلع عبارات كثيرة كهذه، بينما كانوا يسربون إلى أذنَي: الشيء الذي لا يقتلك، يجعلك أقوى)، لكنني قمتُ بتفتيش السماء أكثر

مما ينبغي، ولحسن الحظ أن نظاراتي المصنوعة من الورق المقوى كانت تحميني.

استقر الجيران في حديقتهم، ولوَّحوا لأبي وأمي. اقترب سِرب من طيور السنونو قبل أن يختفي. نبح كلب، حتى تحوَّل نباحه إلى أنينٍ راح يضعف شيئًا فشيئًا. عمَّ الصمت كل شيء. كان كل شيء ثقيلًا ومثيرًا للقلق. انحسرت حرارة الشرفة وتمدَّد الظِل، شعرت بالحرارة وهي تتحوَّل إلى برودة، كما لو أن الدم كان ينسحب من عروقي ومن جسدي كله.

مرَّت عشرون سنة، ويجب أن أقرِّر التخلي عن الأسلحة، مغادرة المنزل، تعني أيضًا أن أسمح لك بالذهاب.

ستتحوَّل الطبيعة من حولي إلى خرسانة، وسيختفي المشهد الطبيعي، كما تختفي الموسيقا أحيانًا من صوتك.

بعد هذه الرحلة الطويلة جدًّا.

بعد ذلك التقاطع المجنون الذي حدث في الطريق، حيث أدى سقوطك إلى كل طُرق السقوط، وكل الطُّرق للنهوض من جديد، كل الطُّرق للعثور عليك، كان هناك الكثير من العلامات، والكثير من المصادفات، والكثير من المواعيد السريَّة. الحياة التي لا يمكن الاعتراف بها أو وصفها، كان هناك شعور بأنك تذوب داخلي، أنني أصبحت رجلًا وامرأة في الوقت نفسه.

كان هنالك أولئك الأصدقاء الذين كانوا يبنون سدًّا، وساعدوني في طلاء المنزل، كان هناك الكتب التي كتبتها، تلك الكلمات التي كانت مثل الطوب، التي كان عليَّ دعمها بالأسمنت رغم كل شيء. كان هناك ثيو وإبداعه، أفكاره لإعادة إحيائك، ثم لإنقاذنا. وعيد الميلاد حيث رقصت فيه تحت أنظار الآخرين، محتفلة بسنواتي الأربعين. كانت هناك تلك المرات الأولى، حيث ابتعد الشعور بالخطر، ثم هذه الحرية المخيفة التي لم أتوقَّعها، التي جعلتني أخوض كل المخاطر. كانت هناك دوخة الحب الجديد تلك رغم الاشتياق.

الرغبة والحزن ممتزجان، كل التناقضات، كما لو أن الحياة تدور داخل غسالة ملابس.

كان هناك الإخلاص والشعور بالذنب.

الكلمات الكبيرة.

الحياة المزدوجة، التي تنبض مثل أغنية لفرقة سباركس.

يجب أن أحزم الصناديق الكرتونية مرة أخرى، أن أحفظ أقراصك، وأن أغلف آلاتك الموسيقية.

سوف يغطي ضجيج المحركات على غناء العصافير.

الكاريراتير دائمًا. وستأتي الجرّافات وتدمر كل ما كان لا يزال على قيد الحياة.

لقد مرّت عشرون سنة وذاكرتي مثقوبة، يحدث أن أضيّعك، وأترك لك أن تخرج مني.

أحتاج في بعض الأحيانٍ، إلى أن أركز، حتى أعيد تشكيل ملامحك.. هذا ما لم أتخيله قَطُّ.

للوصول إلى جميع التفاصيل، لا بد لي أن أستدعي مشهدًا خاصًا جدًا لألتقط نظرتك. لا أتحدث عن عينيك، التي أعرف كثافة المخمل الأسود فيهما، عن ظهر قلب، لكني أتحدث عن نظرتك. يجب أن أركز وأجعل هذه اللحظة تنبثق، تلك اللحظة التي صورتها ذهنيًا، وأتذكر أنني قلت لنفسي آنذاك: في حال لو احتجتها. من يدري؟

أعتقد أن الجميع يلعب هذه اللعبة، حِفظ صورة ما... فمن يدري؟

كنت تقرفص في الحمام، تبحث عن شيء في الخزانة التي تحت الحوض، غالبًا زجاجة الجل (مثبت الشعر)، التي كنت أحب رائحتها، والتي روضت بها كثافة شعرك، كان هذا في الشقة القديمة، قبل بضعة أسابيع من الانتقال. دخلت عليك، فقفزت، كما لو أنك غاضب مني لأني دفعت الباب فجأة، وأنا كنت متفاجئة بوجودك هناك، بنصف جسم علوي عارٍ، كأنك أعزل. رفعت عينيك إليَّ، بينما كان الضوء من النافذة نصف المفتوحة يغطي ظهرك. كنت جميلًا جدًّا.

كان هناك شيء هشٌ وجذاب في عينيك، كأنك خرجت من مكان آخر. أنت قريب من الأرض، أنا واقفة أمامك، كما لو أني أتدلَّى عليك. وتلك الأكتاف، تلك العضلة ذات الرأسين كأنها في جسد مراهق. قبل أن أغلق الباب، تلعثمت بجزء من جملة تحتوي على كلمة «آسفة» بداخلها، اعتذار يحمل تشجيعًا سريًّا، ذلك الخجل والتواضع الزائف الذي تظاهرت به في المقابل. ذلك الطيف لابتسامة متواطئة. لقد احتفظت بتلك النظرة، تلك النظرة الضمنية التي تقول كثيرًا، بينما كنت أسير مبتعدة في الممر.

احتفظت أيضًا بنبرة صوتك عندما سألتني في اللحظة الأخيرة: هل أنتِ بخير؟ هذا كل ما قلته: هل أنتِ بخير؟ بذلك الصوت العميق والخشن بعض الشيء، كما لو أنك أردت أن تكون متأكدًا من عدم وجود أي ظل لأي شيء.

أدرتُ ظهري، حدث شيء.

كنت مطمئنة.

حياة متعجِّلة

«انجذبت إلى هذه المهمَّة المزدوجة والمستحيلة شراء المنزل والعثور على الأسلحة المخفيَّة. كان الأمر غير متوقَّع، ولم أشعر بالورطة التي ستقلب وجودنا رأسًا على عقب؛ لأن المنزل يوجد في قلب ما تسبَّب في الحادث».

في سردٍ متوتِّر، يعمل بمنزلة عدٍّ تنازلي حقيقي تحاول بريجيت جيرو فهم الأسباب التي قادت إلى حادث الدراجة النارية، الذي كلَّفها حياة زوجها في 22 يونيو 1999. بعد عشرين عامًا، تقوم بدور المحقق، إذا جاز التعبير، وتحقق لمرة أخيرة في الأسئلة التي بقيت من دون إجابة.

***

بريجيت جيرو: مؤلفة عشرة أعمال أدبية، تشمل: هديَّة (تنويه خاص من جائزة ويبلر 2001)، نبالغ في تقدير الحب (جائزة غونكور للقصة القصيرة 2007)، سنة غريبة (جان بريكس جيونو 2009)، ذئب للإنسان ويوم الشجاعة (2017 - 2019). حياة متعجِّلة (جائزة غونكور الفرنسية للرواية 2022).





منشورات حياة